د. عماد الدين خليل

أولى ملاحم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ما شهدته وتشهده الساحة الفلسطينية .. حالة نادرة لم يكد التاريخ البشري يشهد لها مثيلاً من قبل .. إنها – بحق – أولى ملاحم القرن الحادي والعشرين .. بل ملحمة التاريخ كلّه !!

ليست العمليات الاستشهادية فحسب لشباب في عمر الزهور .. ليس فحسب تهافت المئات والألوف منهم على مراكز التطوع يطلبون ويلحون في الطلب أن تدرج أسماؤهم في قوائم الذاهبين إلى الشهادة .. ليست فحسب التظاهرات اليومية التي تطوف شوارع المدن والقرى الفلسطينية صباح مساء ، تجابه الموت ، والفناء ، وتفتح صدرها لقذائف الدبابات وصواريخ الطائرات وزخّات الرصاص .. ليست فحسب في استبشار الآباء والأمهات ، وسعادتهم المدهشة لاستشهاد أبنائهم ، أو تعرّضهم لجروح خطيرة .. ليست فحسب في مشاركة الصبية والأطفال في أعمال المقاومة والتحدي والصمود ، وقيام الفتيات في تعريض أنفسهن للموت ..

إنما هي في هذا كلّه .. ومعه إرادة شعب بأكمله .. شعب أعزل تماماً في مواجهة واحدة من أشد السلطات العسكرية في التاريخ بغياً وإرهاباً ..

ومع هذا وذاك ، هذه القدرة الأسطورية على إدامة الانتفاضة الكبرى ، وتفعيلها ، وتوسيع نطاقها .. رغم الغياب الكلي لبداهات التوازن في القوى بين الطرفين ..

فليس عجباً أن يسقط رهان " شارون " وأن يمرّغ أنفه بالتراب ، وأن تسقط معه برامج " الليكود " اليمينية المتطرفة التي ظن الإسرائيليون وهم يمنحونها ثقتهم بأنها ستقود إسرائيل إلى برّ الأمان.

لقد طرح هولاكو الجديد مبدأ القضاء على الانتفاضة في مائة يوم فحسب .. ومضت الأيام المائة ، ومضى بعدها عام بأكمله .. والانتفاضة تزداد اشتعالاً ، يغذّيها الدم الفلسطيني الذي نذر لله .. والوطن .. والمقدسات ..

لقد دخل الإرهابي " شارون " لعبة خاسرة بكل تأكيد .. وها هي ذي المعطيات الأخيرة ، وتراكمات الجهد الفلسطيني المكافح تقوده وحزبه إلى الزاوية الضيّقة لتلّقي الضربة القاضية.

ففيما وراء الديكورات المصطنعة للقيادة الإسرائيلية .. فيما وراء ابتسامات " شارون " التي تعكس بوضوح حيرة وقلقاً وإحساساً مريراً بالمأزق الذي يتخبّط فيه .. فيما وراء الائتلاف الهشّ للقوى الإسرائيلية .. يكمن التفكك .. والصراع .. والتحفّز للانقضاض .. تكمن الانتهازية الحزبية التي تعرف من أين تؤكل الكتف .. يكمن أيضاً إحساس مرير باليأس والإحباط بعد إذ أخفقت المحاولة الأكثر قوة ودعماً شعبياً لليمين الإسرائيلي الذي حلم يوماً بوأد الإرادة الفلسطينية وجعل الانتفاضة حالة تاريخية عفا عليها الزمان.

الشعب الفلسطيني حاضر في قلب الحدث .. حاضر بشبابه وشيوخه وأطفاله ونسائه .. حاضر بقلبه وعقله وقدراته الجسدية وإرادته ، وإصراره المدهش على مواصلة الطريق .. حاضر بإيمانه المتألق الذي يصنع المعجزات ، وينسج خيوط واحدة من أكبر الملاحم في التاريخ البشري، إن لم تكن أكبرها على الإطلاق ..

الآن

هذه هي بداية الرد ونقطة الانطلاق.

يقرأ ملايين المسلمين كل يوم فاتحة الكتاب التي تنتهي بإدانة الله (سبحانه وتعالى) للمغضوب عليهم (أي اليهود) فهل نخالف أمر الله بالرضا عنهم والتطبيع معهم ، وهم فوق ذلك مغتصبو الأرض والعرض ؟

العودة إلى الخنادق وتدمير جسور التطبيع مع أعداء الله .. فمنذ البدء أراد لنا كتاب الله هذا .. والله أدرى بخلقه .. وتوالت آيات القرآن الكريم تحذّرنا ألاّ نعبر إليهم ونفتح بيننا وبينهم الممرات والجسور.

مساحات واسعة في سورة البقرة وفي العديد من السور الأخرى فضحت هويّة اليهود .. سلّطت الأضواء الكاشفة على تكوينهم الذهني والنفسي والسلوكي .. نزعت القشور المصطنعة لبذرة الكراهية والغل والحقد على الإسلام والمسلمين .. زرعت في ذاكرة كل مسلم بذور الحصانة من أية محاولة للاختراق ، وتدمير الشخصية الإسلامية والمجتمع المسلم.

وجاء تاريخهم الطويل مصدّقاً لهذا كله مؤكداً إياه بسيل لا يحصيه عدّ من الوقائع والمعطيات ..

وفي المرّات التي كانوا يندسّون فيها خلالنا ، يخترقوننا أو يعبرون إلينا .. في المرّات التي ردمت فيها الخنادق بيننا وبينهم ، هنا أو هناك ، كنا نتلقى " لدغة الأفعى " ونخسر الكثير ..

ومن منا لا يتذكر ما فعله (ابن سبأ) و(السبأية) في بدايات تاريخنا المبكرة ، وما فعله يهود (الدونمة) في أخريات هذا التاريخ حيث آل الأمر إلى اغتصاب فلسطين ؛

والآن .. ما الذي يحدث ؟

إنهم يقضموننا كما تقضم اسراب الجراد الزروع والثمار .. يقضمون ديارنا ومقدّساتنا .. ويأتون على قيمنا وثوابتنا .. ويزيحون بقايا المتاريس التي تحمينا منهم ..

إن التطبيع هو ، في بدء التحليل ونهايته ، إعلان المشروعية لهذا كلّه ، وتوسيعه ، وإعطاؤه فرصة أكبر بكثير ، وأكثر فاعلية من كل حلقّات الغدر بهذه الأمة ، والتنكيل بوجودها وموروثاتها.

إن أولويات اللحظة التاريخية الراهنة المشحونة بكل الذكريات والخبرات ، والتي يتحتم أن نصغي فيها جيداً للخطاب القرآني بشأن أعداء الله ، تتطلب وقف اللعبة الماكرة ، وإقناع كل الذين مارسوها ودعوا إليها بأن يعلنوا عن توبتهم ، ويفيئوا إلى بني قومهم ، ويحترموا الدم الفلسطيني الذي نزف كثيراً ولا يزال ..

والطريق مفتوح على مصراعيه لتعديل الوقفة المعاكسة لمنطق العقيدة والتاريخ والمصلحة والمصير ، والمتناقضة – ابتداءً – مع نبض الأمة وإحساسها العميق الذي جاءت زيارة (شارون) اللئيمة للمسجد الأقصى – ولحكمة يريدها الله – لكي تكشف النقاب عنها فتفجّر كل هذا الغضب المكبوت عبر عقود الهزيمة والتخاذل والمذلة والانكسار ..

الآن .. هذه هي البداية .. أن نعمّق الخنادق ونقف جميعاً حرّاساً عليها كي لا نسمح لأعداء الله بالعبور إلينا لكي يدمّروا قيمنا ويمرّغوا كرامتنا بالتراب.

مرة أخرى .. لنرجع بإخلاص إلى كتاب الله ولنقرأ بتمعّن ملفّ الخطاب القرآني عن بني إسرائيل .. وحينذاك سنجد أنفسنا ملزمين على كل المستويات العقدية والتشريعية والسلوكية ، بتحصين وجودنا ضد جرثومة الفساد في الأرض ، ومكر عبدة العجل الذهبي ، قتلة الأنبياء ..

وأيّة مقولة ، أو فعل يتناقض – ابتداءً – مع هذا التوجّه الملزم ، هو خيانة لله ورسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام) ..

وإن على أبناء الأمة ، قبل بدء الجولة الكبرى الموعودة بقدر من الله ، مع العدو ، تطهير " الدار " من كل المنافذ التي يتسرّب منها الفساد ، وسدّ كل الثغرات التي تنفذ من خلالها ريح السموم ..

وليس غير " التطبيع " أولاً وقبل كل شيء ، هو ما يتحتم أن نبدأ به جهادنا الموعود .. وهو الحلقة الأضعف في مسلسل " التضادّ " الطويل مع بني إسرائيل ، ومن ثم فهي البداية " الممكنة " التي نمضي بعدها إلى الحلقات الأخرى التي يمكن أن نكسرها هي الأخرى إذا عرفنا كيف نتعلم أبجديات حماية الأرض والعرض والعقيدة ، واستأصلنا كلمة (التطبيع) من قواميس حياتنا الراهنة ومعاجمها ، ووقفنا جميعاً حراساً على حافات الخنادق العميقة التي حفرتها كلمات الله.

القضية .. وضرورات استدعاء الخبرة التاريخية

في لحظات " التحدّي " الراهنة التي تجتازها " القضية " قبالة إسرائيل المغتصبة ، وحيث تتعرض " القدس " للذبح مرة أخرى ، لابد من الاستهداء باثنتين كي لا يضلّ الطريق بهذه الأمة، أو تضيع دماء شهداء فلسطين هدراً : الخبرة العقدية والخبرة التاريخية.

ولقد قيل في أولاهما الكثير ، ولذا سيتم التأشير ها هنا على ثانيتهما. فما بين عامي (٤٩٢هـ) حيث دخل الصليبيون الغزاة بيت المقدس ونفّذوا فيه مذبحتهم المعروفة التي ذهب ضحيتّها سبعون ألفاً من الأطفال والنساء والشيوخ ، والتي قال عنها أحد شهود العيان الصليبيين أنفسهم صاحب وثيقة (الجشتا) ، إن قوائم خيولهم كانت ، وهي تجتاز دروب القدس ، تغوص في برك دماء المسلمين.

وعام (٥٨٣هـ) حيث دخل الناصر صلاح الدين بيت المقدس فاتحاً ومحرّراً ، محترماً دم الخصم من الهدر ، وحرّيته من الابتزاز ، وطفولة مقاتليه من الخوف والأذى والضياع ، كما تحدثنا المصادر التي عاصرت الحدث الكبير ..

ما بين العامين ، مدى زمني يقرب من القرن ، تعاقبت عبره الأحداث لكي تومىء باليوم الموعود.

لقد تحقّق عبر هذا المدى ما يمكن أن نطلق عليه مبدأ " تنامي الجهد " الذي قاد بحلقاته المتتابعة ، إلى تحرير مساحات واسعة من فلسطين وزهرة مدائنها من قبضة المستوطنين الغزاة.

البداية في عام (٥١٨هـ) حيث تعرضت مدينة حلب لحصار قاسٍ من القوات الصليبية التي أصرّت هذه المرة على دخول المدينة بأي ثمن ، ومعنى ذلك عزل القوى الجهادية الإسلامية عن بعضها في العراق والجزيرة الفراتية والشام ، والحدّ من ضغطها المتواصل على الوجود الصليبي في فلسطين.

كان أمراء حلب عاجزين تماماً عن مجابهة الموقف فتولّى أمر المقاومة والدفاع القاضي أبو بكر بن الخشاب واستطاع أن يصمد بجماهير حلب في وجه العدوان لحين وصول النجدة التي طلبها من والي الموصل السلجوقي آق سنقر البرسقي الذي قدم بنفسه لفك الحصار في العام نفسه ، ودخول حلب وسط ترحيب شديد من أهاليها ، ومن ثم توحيد مدينتي الموصل وحلب ومنح أولاهما عمقاً استراتيجياً في بلاد الشام يمكن قادتها من ولاة السلاجقة من فاعلية أكثر ضد العدو في الشام وفلسطين.

كانت تلك هي النواة التي أنبتت عليها عبر العقود التالية كل الحلقات التي أمسك بعضها برقاب بعض ، والتي حققت تنامياً مطرداً للجهد الإسلامي في مقاومة العدوّ ، والوصول في نهاية الأمر إلى آخر الشوط وتحرير القدس على يد الناصر صلاح الدين.

تمكن عماد الدين زنكي الذي تولى إمارة الموصل (٥٢١-٥٤١هـ) بعد اغتيال البرسقي من توسيع النواة ، وتحويل الإمارة إلى دولة كبيرة تمتد من حافات العراق الجبلية شمالاً وشرقاً ، وحتى أوساط العراق جنوباً ، وسواحل البحر المتوسط غرباً. ولقد حاول مراراً دخول دمشق لكنها استعصت عليه بسبب من عدم إدراك أمرائها للهدف المركزي الذي كان زنكي يتوخّاه.

بعد اغتيال زنكي عام (٥٤١هـ) تولّى الجناح الشامي من إمارته ابنه المعروف نور الدين محمود (٥٤١-٥٦٩هـ) الذي تمكن برؤيته الإسلامية الأصيلة من إضافة بعد جديد لحركة التوحيد والتحرير التي بدأها أبوه وأسّس لها البرسقي ، والمضّي بها قدماً .. وتنمية الجهد القتالي بالتالي وجعله أكثر قدرة على التعامل مع العدوّ الصليبي في الساحة الفلسطينية بالذات.

لقد سعى الرجل ، برؤيته المتميزة ، وقدراته المدهشة ، وشخصيته الفاعلة ، إلى إقامة الدولة التي تحكم بما أنزل الله ، والأمة المجاهدة التي تملك القدرة المتواصلة على مجابهة العدوّ والتضييق عليه حتى يأذن الله (سبحانه وتعالى) بالنصر الموعود.

فلما جاء الناصر صلاح الدين (٥٦٧-٥٨٩هـ) لم يكن أمامه سوى لمّ ما تبقى من طاقات إسلامية معطّلة في المنطقة ، وإقناع أمرائها الذين عزلوا أنفسهم خارج ساحات الجهاد، بحشد طاقاتهم البشرية والمادية لتنمية الجهد القتالي وجعله أكثر قدرة على تحقيق المطلوب. ورأى الناصر أن الإبقاء على هؤلاء في مواقعهم شرط أن يمدوّه بالمال والرجال هو الحلّ المناسب في لحظات تاريخية كهذه ، فأضاف بذلك بعداً آخر لمبدأ تنامي الجهد ، وهو – إذا جازت التسميات – البعد الاتحادي (الفيدرالي) الذي يتمتع من خلاله كل أمير باستقلاليته، ويشارك في الأهداف والسياسات العامة للدولة الأم التي يتزعمها الناصر صلاح الدين.

وعندما حلّ عام (٥٨٣هـ) كان كل شيء يؤذن بالحسم .. بالمعركة الفاصلة التي هُيئت لها الأسباب .. في حطين حيث تم سحق العمود الفقري للقوات الصليبية ، وانفتح الطريق لتحرير معظم المدن الفلسطينية ، ودخول زهرة مدائنها : بيت المقدس.

ما الذي فعله العدوّ وما الذي فعلناه ؟

في ضوء ما أشرنا إليه بإيجاز في المقال السابق حول توظيف مبدأ تنامي الجهد التاريخي في مجابهة الخصم .. ما الذي فعلناه نحن بعد أكثر من خمسين سنة على ضياع وتآكل فلسطين .. وما الذي فعله العدوّ اليهودي ؟!

ما بين عامي (١٨٩٧م) حيث عقد مؤتمر بازل بزعامة (هرتزل) والذي وضعت فيه التأسيسات الأولى لإنشاء دولة إسرائيل المغتصبة ، و(١٩٤٧م) حيث أعلن عن قيام هذه الدولة .. نصف قرن من الجهد المتواصل الذي تمسك حلقاته ببعضها ، وتبني أدواره واحداً فوق الآخر وفق منظور مبرمج لتنامي الجهد التاريخي باتجاه تحقيق الهدف.

وبغض النظر عن الدعم الغربي الاستعماري المبطن بالروح الصليبية ، والدعم الشرقي الشيوعي المبطن بالكراهية نفسها للإسلام والمسلمين ، والمخترق بآليات العمل اليهودي نفسها ، فإن الذي حدث هو أن " حكماء صهيون " رتبوا المسبّبات على الأسباب ، والنتائج على مقدّماتها، ووظفوا " التاريخ " لتحقيق مبدأ " تنامي الجهد " لكي يبلغوا في نهاية الأمر المحطة التي وضعوها نصب أعينهم.

مرةً أخرى .. ما الذي فعلناه في المدى الزمني الفاصل ما بين اغتصاب فلسطين واللحظات الراهنة ؛ وهو المدى نفسه الذي استغرقته رحلة الصهاينة إلى إسرائيل ؛ هل عرفنا كيف نوظف " التاريخ " ونعتمد مبدأ تنامي الجهد لمجابهة التحدّي ، أو في الأقل ، حماية ما تبقى ؟

هل حاولنا أن نتحقّق بالقوة المالية والاقتصادية فنبني – على سبيل المثال – سوقاً عربية أو إسلامية مشتركة كالتي شهدتها أوروبا الغربية أو الشرق الأقصى ، لكي تكون أيدينا أكثر قدرة على الفعل في مواجهة ، أو بموازاة ، التوظيف اليهودي المدهش للمال والاقتصاد .. لا سيما وأننا نحن الذين نملك وهم الذين لا يملكون ؟

هل حاولنا أن نتحقق بالقوة السياسية ، ولو في حدودها الدنيا ، من مطالب الوحدة أو الاتحاد ، أو التقارب ، أو العمل المشترك أو بناء المؤسسات التي تستجيب لمطالب العصر ، والتحديات الراهنة ، وتنقذ جامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي من حالة الشلل وضعف الفاعلية التي تعانيان منها منذ عقود وعقود ؟

هل حاولنا أن نتحقّق بالقوة العسكرية فنبني سلاحنا بأيدينا بدلاً من أن نستورد ، أو نستجديه من هنا وهناك ؟

هل حاولنا أن نتحقق بقدر من الوحدة الثقافية التي تتميز بها الأمم والحضارات ، فلا ينكث بعضنا غزل البعض الآخر ، ولا يبحر بعضنا في اتجاه مضاد للبعض الآخر ، ولا نطلع على العالم بألف وجه ووجه ، بدلاً من أن نطلع عليه بوجهٍ واحدٍ أصيل .. ولا نضيّع فرصة التقدم

الأسطوري المدهش لآليات الإعلام ، بدلاً من أن نقف عاجزين إزاءها ، أو ربما تحويلها إلى سلاح موجّه ضد قيمنا وثوابتنا ، وتصوّراتنا ، وبقايا منظومتنا الأخلاقية ؟

ثم ، وقبل هذا وذاك ، هل حاولنا أن نتحصّن بعقيدتنا التي أخرجتنا من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ؟

العقيدة التي منحتنا القدرة على تحرير فلسطين ودخول بيت المقدس مرّتين ، والتي تعدنا – إذا أخذنا بالأسباب – بتحريرها مرة أخرى ؟

ولسوف يظل الجواب معلّقاً .. وما أدرانا ، فلعل هذه الانتفاضة المباركة تفتح أعيننا جيداً على المطلوب .. على ضرورة تجاوز ما فات ، وفوضى الارتجال في العمل ، وسوء التعامل مع التاريخ ، وغياب مبدأ تنامي الجهد عن العقل العربي والمسلم ، وتضع – بالتالي – خطواتنا على الطريق الصحيح ؟

وصدق الله العظيم القائل : **{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ }** (البقرة ، الآية ٢١٦).

الحرية الحمراء

على مدار التاريخ ما فُتحت الأبواب المؤصدة إلاّ بالأيدي المضرّجة بالدم .. ولطالما سمعنا أن الحرية تؤخذ ولا تعطى .. تنتزع انتزاعاً ولا تستجدى.

وما من شعب أو أمّة في التاريخ وجدت مكانها بين الأمم إلاّ بسيل من الدماء .. يقسم أحد الفاتحين أن المسلمين وهم يمضون لتحرير بلاد الشام من قبضة البيزنطيين ، زرعوا في كل ذراع من الأراضي شهيداً .. ويقسم شاهد عيان آخر لمعركة ذات الصواري البحرية بين القوة الإسلامية الناشئة والأسطول البيزنطي العملاق ، أن سبج البحر أصبح دماً بما نزفه شهداء هذا الدين .. وقال السلطان العثماني الشاب محمد الفاتح وهو يقف قبالة أسوار القسطنطينية المنيعة في اللحظات التي سبقت الهجوم الأخير : إما أن آخذ القسطنطينية أو أن تأخذني !

وعبر الساعات التالية والفاتحون يجتازون المدينة العتيقة ويقاتلون في شوارعها وأزقتها .. قدّموا خمسين ألفاً من الشهداء !

قبلها بثمانية قرون تسلّق أبو أيوب الأنصاري ، وكان شيخاً قد تجاوز السبعين من العمر ، أسوار القسطنطينية واستشهد هناك ، ولا يزال قبره في اسطنبول شاهداً على أن إخراج الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .. لن يكون إلاّ بالدم ..

ودعاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهم يجتازون صحاري نجد والحجاز لتحريرها من خرافات الوثنية .. نزفوا كثيراً .. ما كانوا يتجولون في الصحراء .. ولكنهم كانوا يموتون هناك..

والسبعة الذين بعثهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى قبيلتي عضل والقارة غدر بهم الأعراب فقتلوا أربعة منهم ، وسيق الآخرون إلى مكة .. حاول أحدهم الإجهاز على آسريه فرشقوه بالحجارة حتى قتل. واقتيد خبيب وزيد بن الدئنة إلى مكة. حتى إذا قُدّم هذا الأخير ليقتل سأله أبو سفيان : أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك تضرب عنقه وأنك في أهلك ؟ قال : والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأنا جالس في أهلي .. فقتلوه ، وخرجوا بخبيب إلى نفس المكان ليصلبوه ، فسألهم أن يمنحوه فرصة يركع فيها ركعتين فأتمهما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طوّلت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة ، وعندما رفعوه على الخشبة راح ينشد :

فو الله ما أرجو إذا متّ مسلماً ... على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزّعِ

وفي العام نفسه بعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى بئرِ معونة أربعين من دعاته فساروا يتقدمهم حرام بن ملحان بكتاب رسول الله إلى زعيم القوم عامر بن الطفيل ، لكن هذا ما إن نظر في الكتاب حتى عدا على حرام فضربه برمح في جنبه خرج من الشق الآخر وحرام ينادي : فزت ورب الكعبة !! ثم أحيط بالدعاة وهم في رحالهم فهرعوا إلى سيوفهم وقاتلوا القوم قتالاً مريراً حتى حُصدوا عن آخرهم إلا جريحاً انسحب من المجزرة وتمكن من الوصول إلى المدينة حيث قتل شهيداً في الخندق !

والآن .. فإن الفلسطيني يعيد الدور نفسه ، فيطرق سمع العالم الأصم باليد الحمراء ، ويجابه قوى تفوقه بكثير .. ويطوف بجثث الشهداء يوماً بعد يوم في شوارع المدن الفلسطينية لكي يقول : بهؤلاء ستكسر الأبواب المؤصدة .. ويكون الفتح ..

الآن ، والأمة الإسلامية التي تكاد تغرق حتى شحمة أذنيها في دوّامات التكاثر بالأشياء .. والبحث عن المزيد من ضمانات الأمن والاستقرار .. الآن ما من شيء يمكن أن يوقظها .. يهزّ جملتها العصبية التي تراكم فوقها الغبار ، غير الدم النازف في فلسطين ، والشهداء المحمولين على الأكتاف.

صوت الآباء والأجداد الذين حرّروا الدنيا وأعادوا رسم خرائطها لصالح إنسانية الإنسان ، يعود لكي يرتفع حتى يمزق طبلات الأذن المغطاة بالشمع قبالة كل صيغ البربرية اليهودية .. الكراهية السوداء للأمميين .. كل ما هو غير يهودي .. قبالة التلمود وهو يستبيح كل شيء من أجل أن يسمّن العجل الذهبي !

لقد أصبح الصراع واضحاً بيّناً .. بين التلمود الذي يستهدف استعباد الإنسان ، والقرآن الذي يسعى إلى تحريره ..

وبداية الطريق الطويل كانت دائماً فلسطين .. فيها تمّ إلغاء الاستيطان الصليبي في أعقاب حطين .. وفيها كسرت اليد الضاربة للمغول في عين جالوت ، وقتل قائد هولاكو : (كتبغا) وشوهد هولاكو الطاغية يبكي لأوّل مرة ..

وفيها أيضاً سيكون وعد الله الحق .. يوم أن تعرف هذه الأمة كيف تأخذ بالأسباب ..

ودائماً كانت اليد المضرّجة بالدم هي إشارة البدء في الطريق ، والمضي فيه حتى تفتح الأبواب ..

وللحريّة الحمراء بابٌ

بكل يد مضرّجة يدقّ

شارون .. أم النفس الفلسطيني ؟!

الفلسطينيون نَفَسهم طويل ..

محنتهم علّمتهم أن يكون نَفَسهم طويلاً .. قضيّتهم التي جاوزت نصف القرن وهم يعضّون عليها بالنواجذ علمتهم أن يكون نفسهم طويلاً .. تاريخهم الموغل في الزمن والمترع بالمقاومة .. والرفض .. والجهاد .. والاستشهاد .. علّمهم أن يكون نفسهم طويلاً ..

عندما بدأ الإرهابي (شارون) يمسك بالسلاح لكي يقتل به العزّل والأبرياء .. يغتال الشيخوخة والطفولة .. يذبح حتى الأجنة في بطون أمهاتها .. كان الفلسطينيون قد اجتازوا القرون الطوال وهم يمسكون بالسلاح لكي يدافعوا عن حقهم .. وأرضهم .. وعرضهم .. وشرفهم .. ولكي يحموا – قبل هذا وبعده – إنسانية الإنسان التي انتهكها مغول القرن العشرين ..

في فلسطين تمّ سحق العمود الفقري للوجود الصليبي المغتصب في ديارنا .. وفي فلسطين أبيد الجيش المغولي الذي لم يهزم من قبل قط والذي كان ماضياً إلى مصر والمغرب لكي يطوي ما تبقى من عالم الإسلام ويضعه في جيب هولاكو ..

المصريون والفلسطينيون في عين جالوت هم الذين قتلوا (كتبغا) ، ذراع هولاكو الأيمن ، وسحقوا زهرة قواته ، وأرغموا سيّده على البكاء .. لأنه أدرك أن العدّ التنازلي للهجمة المغولية الشرسة على عالم الإسلام ، قد بدأت فعلاً ..

وقاموس الفلسطيني في النصف الأوّل من القرن العشرين صفحات لا تنقضي من التظاهرات ، وخطابات الرفض والمقاومة التي تنذر بالويل ، والمجابهة السرّية والمعلنة ضد المستعمر البريطاني الذي كان يمهد السبيل ليهود الشتات وصهاينة العالم لكي يغتصبوا فلسطين.

ومنذ ذلك الوقت وحتى اللحظات الراهنة ، حيث تجتاز المجابهة الكبرى إحدى منعطفاتها الفاصلة .. ظل الفلسطينيون يقاومون .. بالرفض .. بالكلمة .. بالخنجر والسكين .. بالحجارة والمقلاع .. وبالرصاصة والقنبلة ..

وقبل هذا وذاك ، بتعميق الخندق الذي يفصل بين المسلم واليهودي ، كي لا يعبر الأخير إليه فيضيّعه أو يحتويه ..

مسيرة طويلة اجتازها الفلسطينيون وهم يذرعون القرون ، متشبثين بأرضهم وكرامتهم ، وبحقّهم في الحياة ..

فماذا يكون (شارون) ذو الخمسين سنة من عمر الزمن ؟ وبم يوزن وعده الكاذب بأنه سيحسم المسألة خلال مائة يوم فحسب ؟!

ها هي الأيام المائة تنتهي والفلسطينيون يواصلون انتفاضتهم الكبرى ، والاستشهاديون يتدفقون على مراكز التطوع هنا وهناك .. والجماهير الفلسطينية تجتاز الشوارع والمدن ، تحمل جثث شهدائها وتقول لشارون : بهؤلاء أسقطنا وعدك الكاذب .. وها أنت ذا ترى !!

ويجد المرء نفسه مرغماً على وضع (شارون) جنباً إلى جنب مع الإرهابي الصليبي (ريجنالد شاتيون) حاكم الكرك والشوبك زمن الاستيطان الصليبي والذي قتله الناصر صلاح الدين بيديه بعد إذ جاوزت جرائمه واعتداءاته على الحجاج والمسالمين كل حدّ .. إلى جنب الإرهابي المغولي (كتبغا) الذي لقي مصرعه في عين جالوت جنوبي طبرية ..

الطغاة الثلاثة كانوا يعتقدون بأنهم وضعوا فلسطين في جيوبهم ، وأن هذا سيتيح لهم مواصلة الطريق إلى جغرافية الإسلام هنا وهناك ..

هاجم (شاتيون) بلاد الحجاز وكان يحلم بدخول مدينة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ونبش قبره الشريف !

وحمل (كتبغا) إلى قيادة المماليك في مصر رسالة سيّده هولاكو أن يفتحوا لقواته أبواب القاهرة وإلاّ جعل عاليها سافلها !

وأعلن (شارون) أنه بعد مائة يوم فحسب سيصفي حسابه مع الفلسطينيين .. وقتل (شاتيون) بيد الناصر صلاح الدين في حطين ..

وسفك فرسان المماليك دم (كتبغا) في عين جالوت ..

وها هو (شارون) يتلقى الصفعة بتجاوز حاجز المائة يوم دون أن يحقق وعده !

فلسطين مصيدة كبيرة .. وأبناؤها نفسهم طويل .. أطول بكثير من قامات الطواغيت الصغار الثلاثة الذين أرادوا اغتيال فلسطين والإجهاز على هذا الدين !

أين هو الرأي العام ؟!

أين هو الرأي العام العالمي ؟

شعب بكامله يحاصر ويذبح .. فأين الرأي العام ؟

شعب أعزل إلاّ من الحجارة ، يرشقه الطاغوت الإسرائيلي بالرصاص والقنابل والصواريخ .. وبالمدفعية والدبابات .. والبوارج والطائرات .. فأين الرأي العام ؟

هل غاب " الإحساس " وانعدمت " الغيرة " وضاعت " النخوة " ، وذبحت منظومة القيم " الخلقية " لدى الإنسان والمجتمعات والشعوب المعاصرة إلى هذا الحدّ الذي يجعلهم لا يرفعون كلمة ، ولا يحرّكون يداً ، ولا يخرجون بتظاهرة احتجاج في العواصم والمدن ضد هذا الذي يجري أمام أعينهم لحظة بلحظة وساعة بساعة ويوماً بيوم ، وهم قاعدون مستريحون أمام شاشات التلفاز ؟

هل استلبت " إنسانية " الإنسان المعاصر إلى الحدّ الذي لم يعد يكترث على الإطلاق بأخيه الإنسان وهو يذبح قبالته بسكين الحقد والغدر والإرهاب ؟

هل لم يعد للنبض " الديني " أيما خفقان في شرايين الناس ينفخ في عروقهم التوتّر والقلق ، وربما الغضب ، ضد هذا الذي يجري فيما لم يشهد له التاريخ مثيلاً حتى زمن (جنكيز خان) و(أتيلا) و(هولاكو) و(تيمور لنك)؟

ما الذي حدث لكي يطبق الصمت فيعقد ألسنة مليارات من المواطنين المنتشرين في أنحاء الأرض عن أن تقول : " لا " للمذبحة التي ينفذها أولاد الأفاعي والحيّات ؟!

أم .. وهو الأرجح في ظنّي .. نحن الذين صنعنا في خيالنا ، وعبر شبكة دفاعاتنا المتهرّئة عن الذات ، عبر نصف القرن الأخير ، شبحاً يدعى " الرأي العام العالمي " ، وأردناه من حيث هو غير موجود أساساً ، أو أنه موجود لكنه لا يعدو أن يكون حالة شبحية لا تملك القدرة على الفعل والتغيير ، أردناه ظهيراً لنا في صراعنا مع الاستعمار حيناً ، والصليبية الجديدة حيناً آخر .. والصهيونية وإسرائيل حيناً ثالثاً ؟!

ونسينا ، ونحن نلوذ بالأخيلة والتمنيات والأحلام .. أننا ما لم نصنع تاريخنا بأنفسنا فلن يصنعه الآخر نيابة عنا .. واننا ما لم ندفع عن أنفسنا بأيدينا فلن يتفضّل الآخر للدفاع عنا .. واننا ما لم نمرّن حناجرنا وأيدينا على الاصطراع مع الخصم ، فلن يحرك الآخرون حناجرهم أو أيديهم .. وأن كتاب الله طالما نبّهنا إلى هذا وحذّرنا منه في الوقت نفسه كي لا نضيع في مسالك الدنيا : **{لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً }** (النساء، الآية ١٢٣).

ولقد كانت خديعتنا بأكذوبة " الرأي العام " نوعاً من السوء عملناه بأيدينا فجوزينا بصمته وإنكاره وإشاحته عن مطالبنا وقضايانا ..

وعبر توهّمنا المعاصر لوجود شيء اسمه " الرأي العام العالمي " نسينا حقيقة أخرى رغم وضوحها الذي لا يكاد يخفى على أحد : ان مساحات واسعة من العالم الغربي على وجه التحديد تدين بالنصرانية .. وهذه ، بسبب الجهل ، والتعصب ، والمصالح ، والتراكمات التاريخية ، وتضليل المكر اليهودي والإعلام الصهيوني ، وضعت نفسها أو كادت في الخندق اليهودي ، وأعلنت رفضها ، بلسان الحال حيناً والمقال أحياناً ، لمطالبنا الإسلامية المشروعة وعلى رأسها حقنا المغتصب في فلسطين ..

إذا كانت البابوية الكاثوليكية نفسها قد اخترقت يهودياً منذ الستينات فأصدرت قرارها المعروف بتبرئة اليهود من دم السيد المسيح (عليه السلام) .. وإذا كانت البروتستانتية الأمريكية قد اخترقت هي الأخرى بالأساطير اليهودية وادّعاءاتها التاريخية الدينية الزائفة ، فتفرّغ من زعمائها من يخطب ويحاضر ويدّون المؤلفات لمصلحة اليهود ، ووجودهم المغتصب في فلسطين ، ومستقبلهم هناك ..

فكيف نأمن من رعايا هؤلاء وهؤلاء ، أن يتحركوا لإدانة إسرائيل والوقوف إلى جانب قضايانا ؟

ألم يئن الأوان لإقناع أنفسنا بأن حاصل جمع برتقالتين وثلاث تفاحات لن يكون وفق المنطوق الحسابي " خمسة " على الإطلاق ؟!

حول مشروع المليار دولار !!

حدّثني صديق مهندس عن مشروع أخذ يلحّ عليه سماه " مشروع المليار دولار " ، وأنه اتصل بإحدى الفضائيات العربية للإعلان عنه والترويج له ، وشرح آلياته ووسائله ، ودعوة المسلمين في كل مكان للمشاركة فيه.

وقال بأن تعداد مسلمي العالم اليوم جاوز المليار والمائة مليون عدداً فلو أنهم استنفروا من أجل قضية فلسطين وحماية شعبها من الطاغوت الإسرائيلي بدولار واحد لكل منهم ، وهو أمرٌ ليس صعباً أو مستحيلاً ، لأصبح بين أيدي الشعب الفلسطيني " قدرة " مالية فعّالة لإدامة انتفاضتهم والمضي بها الشهور الأخرى ، وإسقاط ادّعاءات زعماء إسرائيل القائلة بإمكان وقف الانتفاضة والقضاء عليها. وحينذاك .. حين يصير هذا المشروع – على تواضعه – أمراً واقعاً ، تكون الأمة التي تنتسب إلى الإسلام (!!) قد حققت أكثر من هدف ، أوّلها ولا ريب ما أشرنا إليه قبل لحظات من إعانة الفلسطينيين على إدامة انتفاضتهم ورفضهم القاطع للمطالب الإسرائيلية ، وثانيها تحويل المشاعر الإسلامية المحبوسة في الصدور ، المكبوتة في الضمائر والعقول ، إلى فعل متحقّق يشبع في نفس " المسلم المعاصر " حاجة ملحّة ، ويدفعه إلى الالتحام أكثر بالقضية والرغبة في تقديم المزيد .. وسيشعر أنه أصبح – فعلاً – معنياً بها ، ليس من قبيل العواطف والتمنيات ، وإنما بالفعل والحركة والسلوك ، تنفيذاً لتعاليم الرسول القائد المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) : " المسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " " من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ".

إن المسالة ليست مسألة دولار يدفع ، ولكنها إحساس بالمشاركة تنقل المسلمين عبر جغرافية عالم الإسلام كله من خانة السلب والعزلة واللامبالاة ، إلى حالة الايجاب والالتحام والاكتراث الفعّال الذي يصنع الأعاجيب.

ومنذ بدايات المشروع الصهيوني الذي استهدف اغتصاب فلسطين في مؤتمر بازل عام (١٨٩٧م) وحتى اللحظات الراهنة ، كان يهود العالم كافةً يتداعون بأموالهم لنصرة مشروعهم هذا، ثم دولتهم فيما بعد ، والأرقام المكشوفة التي يعرفها الكثيرون منا لحملات التبّرع اليهودي تثير الدهشة .. ونحن الذين نملك النفط والمال والخامات والموقع والعدد الهائل ، لا نكاد نقدم لقضيتنا عشر معشار هذا الذي يقدّمه اليهودي .. فلماذا وكتاب الله يؤكد في عشرات المواضع ومئاتها على أن الجهاد بالمال لا يقل شرفاً وقربى من رضا الله (سبحانه وتعالى) عن الجهاد بالدم ، بل أنه في كتاب الله يسبق دائماً الجهاد بالدم بسبب من أهميته البالغة في مجابهة الخصوم والأعداء ؟!

وثمة نتيجة ثالثة يمكن أن تتمخض عن مشروع المليار دولار هذا ، إذا قدّر له النجاح ، وهو نفخ الحياة في مشروع المليار دولار الذي سبق وأن أعلن عنه (مؤتمر القمة العربي) منذ بدايات الانتفاضة ، فلم يكد الفلسطينيون يقبضون منه سوى على الفتات.

وإذا لم يكن الحكام قادرين على تنفيذ ما وعدوا به ، لسبب أو آخر ، فأحرى بالشعوب أن تحقق هذا الذي عجز عنه الحكام ..

وفي كل الأحوال فإن مجابهة الخصم لن تملك فعاليتها العالية ، وكفاءتها في العمل ، إلاّ باستخدام السلاح نفسه : المال .. رغم أن هذا هو الحدّ الأدنى الذي يتحتم على أبناء هذه الأمة أن يقدّموه للقضية.

وما دونه فليس سوى التنكر لها .. والخيانة لله ورسوله ..

القضية .. والتناصر الإسلامي

شهدت أمتنا الإسلامية عبر تاريخها الطويل لحظات من التوهج والبذل والعطاء .. كانت تعبّر خلالها عن رغبة أصيلة في التناصر والإحساس بالهم المشترك إزاء المحن والتحديات ، وتعكس مغزى حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " المسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " وحديثه : " من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ".

عندما غزا الصليبيون ديارنا في الشام وفلسطين في أواخر القرن الخامس الهجري ، وطيلة مائتي سنة بعدها من محاولات الاستيطان الأجنبي في بلاد الإسلام ، تداعى المسلمون من كل مكان لمجابهة العدوان : من بلاد فارس والأناضول ، من العراق والجزيرة الفراتية ، من الشام وفلسطين ، ومن مصر والمغرب .. كانوا يتدفقون طواعية واختياراً تلبية لنداء الجهاد ، ورغبة في تحرير أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين من دنس الفرنجة.

جماعات وشعوب وأقوام شتى انضوت تحت رايات القادة المجاهدين لتحقيق الهدف العزيز .. ولطالما ردّد (ابن الأثير) في كتابه (الكامل في التاريخ) وغيره من مؤرخي الحروب الصليبية ، أن القائد الفلاني خرج للجهاد أو لقتال الفرنجة " ومعه العرب والأتراك والأكراد " ، كانت هذه العبارة تحمل مغزاها فيما نحن بصدده .. بل إن قيادة حركة المقاومة الإسلامية نفسها تبادلها وتعاقب عليها ملوك وسلاطين وأمراء وولاة من أجناس إسلامية شتى عربية وتركية وكردية وسلجوقية ومملوكية .. كان أحدهم يسلّم الراية للآخر لكي يواصل الطريق ..

وعندما ضعف أمر المسلمين في الأندلس زمن دويلات الطوائف ، بسبب من تناحرهم وخياناتهم وإيثارهم الحياة الدنيا وكراهيتهم الموت .. وراح نصارى إسبانيا يضيقّون عليهم الخناق ، استغاثوا بمسلمي المغرب من المرابطين فعبر هؤلاء إليهم لكي يسحقوا قوات الفونسو في معركة الزلاّقة ، ويحموا الأندلس من الضياع ، ويمدّوا ، والموحدّون من بعدهم ، في عمرها أربعمائة سنة أخرى !

ولما أوشكت آخر معاقل الأندلس (غرناطة) على السقوط في أواخر القرن التاسع عشر الهجري ، أخذ العثمانيون في المشرق يعدّون العدّة لإرسال أساطيلهم لمجابهة التحدّي الإسباني وحماية ما تبقى من الوجود الإسلامي هناك لولا أن شغلتهم مؤامرات الدولة الصفوية في بلاد فارس وأرغمتهم على إدارة ظهورهم للساحة الأوربية والتوجه شرقاً لمجابهة الموقف.

وفيما بعد ، وعبر حركة الالتفات الإسباني – البرتغالي على سواحل أفريقيا والخليج العربي، ومن بعدهم الإنكليز ، لم يترك العثمانيون فرصة للتعاون مع أبناء المنطقة ومقاومة الاحتلال إلا اهتبلوها.

وكلّنا يذكر ما حدث فيما بعد ، زمن الاستعمار الفرنسي والإسباني والإيطالي لأقاليم المغرب العربي والجزائر وليبيا .. كيف كان المجاهدون يتدفقون من كل مكان لنصرة إخوانهم هنا وهناك .. وكيف أن الحدود في ديار الإسلام كانت مفتوحة لتنقلات المتطوعين الذين كانوا يبحثون عن الشهادة في سبيل الله ..

والآن ، في مجابهة الطاغوت الإسرائيلي الذي افترس الأرض والمقدسات وها هو ذا يفترس الشعب الفلسطيني نفسه .. بقايا الشعب الفلسطيني بعبارة أدق ، بعد إذ أرغم قطاعات واسعة منه على الهجرة فتبعثروا في البلاد ..

الآن .. يتساءل المرء : أين التناصر الإسلامي ؟ وماذا حل بالهمّ المشترك ؟ وأين أمانة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) التي وضعها في عنق كل مسلم على مدار التاريخ ؟

ما الذي حدث لكي ينخفض نبض التناصر والإحساس بالهم المشترك إلى درجة الصفر أو يكاد ؟

لعلّ وقوف العديد من حكام الديار العربية والإسلامية في وجه التعبير عن التناصر الإسلامي وتحويله إلى فعل متحقق هو السبب ولكنه ليس كل شيء فإن بمقدور الأمة العربية والشعوب الإسلامية أن تفعل الأفاعيل بعيداً عن حواجز الحكام .. فأين هي هذه الأفاعيل ؟

إن الخطاب الإعلامي للتعبير عن التناصر لا يكفي وحده .. والتبرّع بالمال وحده لا يكفي ، والإعراب عن الرغبة في الجهاد وحده لا يكفي ، ولابدّ من الفعل الذي يحوّل الخطاب والمال والرغبة إلى واقع مشهود يديم المقاومة الأسطورية للشعب الفلسطيني ويمدّ في عمرها ، ويضيّق الخناق على التحدّي الإسرائيلي ويرغمه على التراجع ، على الأقل عن محاولة تدمير البنية الديموغرافية والاقتصادية للفلسطينيين.

ولن يكون ذلك إلاّ بأن تتداعى القوى والمنظمات والحركات والمؤسسات الشعبية ، وتتدارس إمكانات الفعل هذه ، وتضع جملة من ثوابت العمل ومرتكزاته وصيغ تنفيذه ، والمراحل الزمنية التي يتطلبها ، والمتغيرات التي يتحتّم أن توضع في الحسبان ، وحجم التحديات وموازين القوى في كل مرحلة .. والممرات التي تتيح للعمل أن يمضي من خلالها إلى أهدافه المتوخاة.

وإلاّ فإن ألف تظاهرة أو خطبة .. وألف عمود صحفي أو حوار في القنوات الفضائية ، لن يأتي بطائل ما لم ينعكس فعلاً منظوراً على صفحة الواقع ويقود إلى الالتحام بالقضية :

{الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } (الحج ، الآية ٤٠) ..

الأمة المسلمة وتوظيف المال

عجيب أمر هذه الأمة في عصرها الحديث هذا .. لقد حباها الله (سبحانه وتعالى) من الثروات الطبيعية ، وبخاصة النفط والموقع ، ما كان يتحتم أن تكون معه أغنى أمة في العالم ، ولكن الذي حدث أنها ، في المساحات الأوسع من نسيجها ، غدت أفقر أمة ..

والفقر كما هو معروف سبب الأسباب ومصيبة المصائب من حيث أنه منبع التخلّف والجهل والمرض والضعف والهوان.

وبمجرد القيام بجملة من الإحصائيات المقارنة في هذه السياقات يتبين الحضيض الأدنى الذي انحدرت إليه هذه الأمة التي أريد لها أن تكون أغنى وأقوى أمة في الأرض !

إنها تحسن هدر الفرص والطاقات والإمكانات المالية ، وقد ابتكرت في ذلك طرائق وفنوناً ما عرفتها ولن تعرفها أمة في الأرض ..

ولكنها لا تحسن توظيف المال ، وتصريف الطاقة ، واغتنام الفرص المتاحة .. ولن يحابي الله(سبحانه وتعالى) أمة تسيء التصرف بما منحها إياه من نعم وخيرات .. حتى لو حبس أبناؤها أنفسهم الليالي الطوال في الجوامع والمساجد يبكون ويتضرّعون.

وعطاء الله (سبحانه وتعالى) – كما هو معلوم – مفتوح للمؤمن والفاجر ، واليد الأقدر والأشطر هي التي تعرف كيف تحوّله إلى أداة للصعود لا وسيلة للتفكك والاندثار : **{كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً }** (الإسراء ، الآية ٢٠).

لقد كان من أهم عوامل تفوّق اليهودي في العالم قدرته على التعامل مع المال .. صحيح أنه وهو يمارس هذه المهمة ، لا يفرّق بين الحق والباطل ويعتمد كل أسلوب شريف أو خسيس ، ويتذّرع بشعار " الغاية تبرر الواسطة " .. وصحيح أن اليهودي الذي أشرب في قلبه العجل الذهبي أصبح الذهب معبوده من دون الله فمنحه هذا قدرات أسطورية على التنمية والتكاثر والتوظيف ، إلاّ أن مما لا يناقش فيه أحد أن اليهود عرفوا كيف يستثمرون المال ، وكيف يوظفونه في أقصى حالاته المتاحة لخدمة قضاياهم ، وعلى رأسها دولتهم المغتصبة في فلسطين.

ونحن على العكس تماماً .. نحسن الهدر ، ونسيء التوظيف ، ونبدّد الثروات ، ونضيّع الفرص ، ونشتّت الطاقات ، رغم أننا نملك مئات أضعاف ما يملكه اليهود ، بل آلاف أضعافه.

واليوم ، حيث تتطلب إدامة الانتفاضة الفلسطينية دعماً مالياً كحدّ أدنى من مطالب القدرة على مواجهة الطاغوت الإسرائيلي ، هل استطعنا كأمة أن نحسن توظيف جانب محدود من هذا المال المشاع ، لتلبية الطلب الملح ؟

إن مليار دولار تبرّع بها رؤساء الدول العربية في قمتّهم لم يكد يصل منها شيء إلى الفلسطينيين ، وإن الذي وصل – ربما – لم يوضع في محلّه تماماً ، لكي يمنح المزيد من القدرة على المقاومة والصمود .. وإن الأمة العربية والإسلامية التي تتجمع لدى عدد من أثريائها ، وشرائحها ، ومؤسساتها ، أموال لا يدري أصحابها أين يوجهّون " زكاتها " فقط ، لم تكد تفعل إلا ما هو دون الحدّ الأدنى المطلوب بكثير ..

وإن النفط ، هذه الطاقة الأسطورية التي تمدّ الحضارة الغربية بالقدرة على الاستمرارية والنماء ، وتمنح القيادات الغربية المتسلطة إمكانيات القوة والتفوق التي يسومون بها المستضعفين في الأرض ، سوء العذاب .. لم يكد يوظف – ولو في الحدود الدنيا – لإمداد الفلسطينيين بأسباب القدرة على إدامة انتفاضتهم ومجابهة الطاغوت الإسرائيلي الذي يسعى إلى إخراجهم من الجغرافيا والتاريخ.

ألم يئن الأوان لكي نتعلّم من الخصم نفسه ما يعيننا على مجابهته ؟ ألم يحن الوقت لتذكر كيف أن هذه المنحة الإلهية التي أعطيناها ، فلم نحسن التعامل معها ، يمكن أن تضيع على حين غفلة عقاباً على ما صنعته أيدينا من سوء ، كما خسفت الأرض بقارون يوماً ، فأصبح خبراً من الأخبار ؟

وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه : **{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }** (آل عمران ، الآية ١٦٥) ..

لعبة " اللاسامية " !!

ليس ثمة لعبة في التاريخ المعاصر أكثر مكراً وابتزازاً من لعبة " اللاسامية " التي أخذت الحركة الصهيونية تمارسها بموازاة مشروعها في إقامة دولتها المغتصبة في فلسطين.

ورغم انكشاف اللعبة ، وروح التحايل والابتزاز الواضحة فيها ، إلا أنها قدمت للصهاينة " محصولاً " ضخماً من الدعم المادي والمعنوي .. يأخذه اليهود حيناً بالإكراه وأحياناً طواعية واختياراً تحت مظلة القيم الإنسانية وإنصاف المضطهدين ، والتبرؤ من التهمة التي قد يرمى بها هذا الطرف أو ذاك ووصمه بأنه من أعداء السامية !

وعبر النصف الثاني من القرن العشرين ، وحتى اللحظات الراهنة ، استطاع اليهود أن يدرّوا ضرع عدد كبير من الدول والحكومات والمؤسسات من خلال لعبة الاتهام باللاسامية هذه ، حيث العجل الإسرائيلي يزداد سمنة يوماً بعد يوم ، بالمباح وغير المباح .. وهذا الأخير يغطي المساحة الأوسع والكم الأكبر من (المال اليهودي) ما دامت أدبيّاتهم الدينية تمنحهم الإشارة بجواز استخدام أخسّ الأساليب لابتزاز الأمميين من غير اليهود.

ومسألة " السامية " نفسها لم ترس على برّ العلم لحدّ الآن ..

بل إن النظرية الأكثر حداثة تقول أن الأقوام السامية التي انتشرت في فلسطين والهلال الخصيب ، تفرّعت عن العرب أنفسهم عبر فترات زمنية موغلة في الزمن ، وليس كما كان يقال من أن العرب جنس من بين أجناس سامية أخرى غادرت الجزيرة العربية بسبب الجفاف باحثة من بيئات أكثر ملاءمة وخصباً إلى الشمال من جزيرة العرب.

وفي كل الأحوال يبدو أن العرب أشد ارتباطاً بالسامية من اليهود أنفسهم ومن ثم فإنهم آخر من يمكن أن يتهم باللاسامية لأن الإنسان لا يستطيع أن يخرج من جلده حتى لو أراد.

ثم إن الصراع بين غير اليهود ، أياً كانت قومياتهم ، وبين اليهود أنفسهم يخرج عن هذه الدائرة العرقية الضيقة إلى آفاق أوسع تمس إنسانية الإنسان ومنظومته القيمية التي انتهكها اليهود ولا يزالون.

إن الوقوف بوجه العلق اليهودي الذي يعمل تحت غطاء الصهيونية حيناً ، وإسرائيل حيناً آخر ، وهذه المنظمة أو تلك من المنظمات التي ترتدي زيفاً رداء العالمية والإنسانية .. حيناً ثالثاً .. إنما هو لحماية الإنسان في هذا العالم وحماية قيمه من التفكك والدمار ، وليس بسبب نزعة عدوانية تغذيها نوازع الدم والعرق التي عفا عليها الزمن ، لكي يقال أن هذه الجهة أو تلك تنحاز إلى " اللاسامية " وتلحق باليهود أذى لا يستحقونه !

ثم ماذا يقول الفلسطينيون العرب أنفسهم ، الذين اغتصبت ديارهم وشتتوا في الآفاق .. والذين تكالبت عليهم كل قوى الصليبية والاستعمار القديم والجديد ، ووضعت أيديها بأيدي

إسرائيل والحركة الصهيونية لكي تلحق بهم أبشع صور التفكيك والتدمير والإبادة ، فيما لم يسبق أن مارسته أشدّ الشوفينيات عدوانية عبر التاريخ ؟ ألا يحق لهم أن يتهموا كل هذه الأطراف بـ " اللاسامية " لأنها تضطهد وتصفى شعباً عربياً هو في القلب من مجموعة الأقوام السامية إن لم يكن هو المصدر الأم الذي تفرعت عنه جميعاً ؟!

ويتذكر المرء وهو يتابع خرافة (اللاسامية) هذه ، كتاب " رجاء جارودي " : " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " وأن بني إسرائيل الذين بدوءا في العمق التاريخي بخرافة " العجل الذهبي " مضوا عبر التاريخ ينسجون " الأساطير " لكي يدعموا بها وجودهم ومصالحهم ومطامحهم المشروعة وغير المشروعة ، ولكي يبتزوا بها الإنسان والدول والجماعات في كل زمان ومكان ويدرّوا ضرعها.

وقد سبق وأن تنبأوا في إحدى بروتوكولاتهم بأنهم " سيمسكون الثور من قرنيه " .. بم ؟ بهذه الترهات والأساطير ، وبمعزوفة " اللاسامية " المشروخة التي عرفوا كيف يوظفونها عبر القرن الأخير ، رغم أنهم ، بمعطياتهم العدوانية في الساحة الفلسطينية على وجه التحديد ، كانوا أشد خلق الله " لا سامية " واصطراعاً مع التاريخ ، إذا أخذنا بمنطوقهم الملتوي نفسه !

الخندق الذي حفره كتاب الله

منذ المقاطع الأولى في سورة البقرة ، والقرآن الكريم يحفر خندقاً عميقاً بين المسلم واليهودي .. وبين الإنسان وأعداء الله ..

بل منذ فاتحة الكتاب التي يقرؤها المسلم عشرات المرات في اليوم الواحد ، فيجد نفسه قبالة إدانة اليهود ووصفهم بالمغضوب عليهم ..

إنهم عصاة الله (سبحانه وتعالى) ، والمتمردون على تعاليمه ، وقتلة أنبيائه ، وعبّاد العجل الذهبي ، والمراؤون في تنفيذ أوامر الله ، والخونة لأنفسهم وذراريهم ، والمحرّفون لكتبهم .. والجبناء عن أعدائهم .. والمشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ..

والقرآن الكريم ، وهو يحفر الخندق العميق ، لا يكتفي بكشف سوءات اليهود ، وغدرهم ، وجبنهم ، وبخلهم ، وخيانتهم ، والتوائهم ، ومادّيتهم ، وانحراف فطرتهم ، واستعلائهم ، وأنانيتهم ، وتجرّئهم على الله (سبحانه وتعالى) ، وأنبيائه الكرام ، وسوء أخلاقهم في التعامل مع الآخرين..

وإنما هو يمضي لكي يقدّم في آياته البينات ، مقاطع متلاحقة تحذّر المسلمين في كل زمن ومكان من غدر اليهود ، وتحصّنهم من مكرهم الذي تزول منه الجبال.

وجاء عصر الرسالة لكي يعكس على مستوى الفعل التاريخي هذا الذي تحدّث عنه كتاب الله ، ولكي يؤكد مصداقيته التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ..

ما من أسلوب .. ما من دسيسة .. ما من خيانة .. ما من ممارسة ملتوية تستهدف ضرب الإسلام ، وإضعاف دولته ، وعرقلة حركة الدعوة ومنعها من المضيّ إلى هدفها المحتوم .. بل حشد الطاقات العسكرية ، وتأليب الأعداء والخصوم ، ومحاولة سحق المسلمين .. بل محاولة اغتيال الرسول نفسه (صلى الله عليه وسلم) ، إلاّ واعتمدها اليهود عبر مرحلة الدعوة في عصرها المدني.

وكان ردّ الرسول القائد (صلى الله عليه وسلم) موازياً تماماً للفعل اليهودي نفسه .. قديراً على كشف تآمرهم .. ومعاقبتهم .. وقتلهم أو إجلائهم من الأرض .. وكان (صلى الله عليه وسلم) رغم هذا كله ، وحيثما وجد لديهم هامشاً للتعايش مع المسلمين ، مهما كان ضيّقاً ، منحهم فرصة الاستمرار والعمل والبقاء ، كالذي فعله مع يهود خيبر ووادي القرى وتيماء بتركهم في أماكنهم يزرعون وينتجون ويشاركون دولة الإسلام ثمار جهدهم هذا .. وكالذي فعله مع يهود أقصى الشمال من بني جنبة ومقنا ، كما تشهد بذلك العهود السمحة التي كتبها لهم فيما أورد نصوصها " ابن سعد " في طبقاته الكبرى و" الطبري " في تاريخه و" ابن هشام " في سيرته و" الواقدي " في مغازيه و" البلاذري " في أنسابه .. وغيرهم ..

ولكنهم كانوا دائماً البادئين بالمكر والخيانة والعدوان ، الأمر الذي أضطر عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) زمن خلافته إلى أن يصدر أمره بإجلائهم عن جزيرة العرب ..

وعلى مدى تاريخ الإسلام من بدئه وحتى اللحظات الراهنة مضى الغدر اليهودي بأبناء هذه الأمة وقياداتها وعقيدتها وشريعتها يفعل فعله .. ما من ثغرة يتسلّل منها السمّ إلاّ وحاولوا الدخول منها لتحقيق هدفهم هذا .. ويتذكر المرء السلسلة المتطاولة من اللؤم .. بدءً من حركة (ابن اليهودية) عبد الله بن سبأ ، مروراً بمؤامرات الدونمة في سالونيك ضد الخلافة العثمانية وخلعهم السلطان عبد الحميد الثاني (رحمه الله) الذي وقف ببطولة نادرة يحمي فلسطين من مشاريعهم الاستيطانية ، رغم الإغراءات الأسطورية التي تقدّموا بها إليه.

وحتى اللحظات الراهنة حيث الغدر الذي لا تشكمه أية قيمة خلقية على الإطلاق ، هو طبع اليهودي الذي يجري في دمائه تجاه كل ما هو إسلامي في هذا العالم.

إننا ، بمحاولتنا تجاوز هذا الخندق العميق الذي حفره كتاب الله ، والتاريخ ، بيننا وبين اليهودي .. نبحر باتجاه مضاد للكتاب والتاريخ ، ونعمل ، بالتالي ، ضد أنفسنا.

وفي ضوء هذا كلّه لن يكون " التطبيع " في بدء التحليل ونهايته سوى خيانة لله ورسوله والمؤمنين .. ومحاولة طائشة لعبور الخندق العميق.

الوعد الحق .. والمصيدة الكبرى

في يوم ما .. مرسوم في علم الله سبحانه .. مؤكد في أحاديث رسوله (صلى الله عليه وسلم)، سيكون (الوعد الحق) ، حيث تلاحق الأمة المسلمة أعداء الله والإنسان من يهود العالم المتجمعين في فلسطين ، ومغتصبيها .. قتلة الأنبياء .. ومفسدي الأرض .. ومشعلي نار الفتن والحروب فيها.

وحينذاك ستقف سنن الله العاملة في العالم ، أو ما يسمى بقوانين الحركة التاريخية ، إلى جانب المسلم وهو يلاحق اليهود ، حيث الحجارة نفسها تنادي : يا مسلم ، هذا يهودي خلفي ، تعال فأقتله !

ولكن متى يكون الوعد الحق هذا ، والأمة لم تأخذ – بعد – بالحد الأدنى من الأسباب ؟

متى يكون الوعد الحق ، والأمة .. على العكس تماماً .. تمارس في شبكة أنشطتها وسلوكها وسياساتها ومفردات حياتها ، ما يزيدها بعداً ، يوماً بعد يوم ، وعاماً بعد عام ، عن الحدّ الأدنى من شروط الانتصار ؟

إن الله (سبحانه وتعالى) منحنا الكثير من أسباب التفوق ، والتهيّؤ لليوم الموعود : ملياراً ومئات الملايين من المسلمين .. وجغرافية تمتد على قارات ثلاث .. وموقعاً وسطاً يتحكم برقبة العالم كلّه .. وثروات معدنية لم تؤت أسم الأرض قاطبة عشر معشارها .. وقبل هذا كلّه عقيدة فاعلة ليست كالعقائد .. قديرة ، إذا أحسن التعامل معها ، على أن تزحزح الجبال من مواضعها.

ولكننا ، لسبب أو آخر ، فرّطنا بهذا كلّه ، واخترنا أن ننفي أنفسنا من العالم ، وأن نخرج من دائرة التاريخ ، بعد إذ أريد لنا أن نكون في قلب التاريخ ، وسقف العالم .. سادة الدنيا وصانعي المصير.

مهما يكن من أمر فإن الوعد الحق ، كما ينبئ عنه اسمه ، قائم في الأفق البعيد أو القريب ، ينتظر الأمة الفاعلة التي سيتحقق على أيديها ، والقيادات الصالحة التي ستستجيب للنداء.

لقد أراد اليهود بنا مكراً إذ تجمعوا من كل مكان لكي يرموننا عن يد واحدة ويغتصبوا فلسطين ، ويقيموا دولتهم على أرضٍ ليست لهم .. ولكن مكر الله (سبحانه وتعالى) أكثر إحاطة وأشد تدبيراً.

لقد ساق يهود الشتات من كل فجاج الأرض إلى المصيدة الكبرى التي تداعوا إليها بانتظار يوم الفصل الذي سيصيرون فيه هدفاً ممكناً للأمة المسلمة التي ساموها سوء العذاب ، فاغتصبوا ديارها ، ودمّروا منظومتها الخلقية ، وشوّهوا تاريخها ، ووقفوا وراء خصومها ، وأشعلوا نار الفتن والحروب في أنحائها ، وبنوا بينها وبين شعوب العالم سدوداً من الكراهية والبغضاء .. واستخدموا كل أسلوب فاجر لتدمير قدرتها على المقاومة والبقاء.

ها هم الآن في المصيدة الكبرى .. بانتظار العقاب الأخير الذي كتبه الله (سبحانه وتعالى) منذ الأزل على بني إسرائيل ، مصداقاً لقوله تعالى : **{وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً }** (الإسراء ، الآية ١٠٤).

ولن يكون ذلك – مرة أخرى – على يد أمة لا تحسن الأخذ بالأسباب ، ولا تدرك أولويات التعامل مع معطيات الجغرافيا والتاريخ .. بل لا تفقه – ابتداءً – مغزى الخطاب القرآني الذي أراد أن يضعنا في قلب التاريخ ، وقمة العالم ، ولكننا اخترنا أن ننفي أنفسنا فنغادر التاريخ ونخرج من العالم.

ويكفي أن نتذكر بأن ثلاثة من أسماء السور القرآنية تحمل مفاتيح هذا الخطاب الكبير : (الشورى) (القلم) و(الحديد) ، أي الحرية والمعرفة والقوة.

ويوم تتحقق هذه الأمة بهذه المطالب الثلاثة .. يوم تصير الحرية والمعرفة والقوة خبزها اليومي ، وتقليدها الأصيل الذي تعرف كيف تحميه من الانتقاص أو الاغتيال ..

حينذاك يمكن أن يحين " الوعد الحق " ولن يخلف الله وعده !.

من وحي انتفاضة الأقصى :

المسجد منطلقاً وملاذاً (١)

يمكن أن يكون المسجد في الإسلام نقطة الانطلاق .. البؤرة التي يتمحور عندها الفعل وينبثق عنها .. يمكن أن يكون – كذلك – المرآة أو الحالة التي تعكس هموم وممارسات ومطامح وأذواق ونزعات وأشواق أمة بكاملها أريد لها أن تتميز عن الآخرين في كل شيء .. بدءً من العادات والأذواق والتقاليد وآداب السلوك ، وانتهاءً بالمنظور العقدي الذي يرفع شعار " لا إله إلاّ الله " منطلقاً ، وبرنامج عمل ، وهدفاً مركزياً ..

ومنذ الوهلة الأولى يلحظ المرء كيف يصير المسجد نقطة الارتكاز الزمني والمكاني في الحياة الإسلامية .. لقد كان المسجد المنشأة الأولى التي أقامها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام لحظة نزوله المدينة. إنه – تاريخياً – نقطة البداية في نسيج دولة الإسلام التي سيقدّر لها أن تغير خرائط الدنيا.

وبموازاة الزمن ، أصبح المسجد بؤرة المكان الإسلامي .. ما من مدينة أو مصر إلا كان المسجد فيها نقطة الارتكاز في المنظور ، ومنها تتشعب المدينة ، ويتشكل عمرانها الإداري والسكني والخدمي والاقتصادي.

لكأنه قدر هذه الأمة أن تبدأ نسيجها بالمسجد ، لكي ما تلبث المساحات أن تنداح يميناً وشمالاً فتبعد عن المركز لكنها تظل – في كل صغيرة وكبيرة – مشدودة إليه ، باعتباره حجر الزاوية ونقطة الانطلاق ، ومحور الجاذبية التي تدور بها وحولها كل المناشط والفاعليات.

إذا كان الإسلام هو منهاج الدين والدنيا ، وأن غياب أي من القطبين يعني – بالضرورة – ضياع الآخر ، فإن المسجد عرف كيف يحقق حضوره المدهش في تشكيل المعادلة وحمايتها من الغدر والابتزاز .. فلم يعزله يوماً سياج كهنوتي عن دنيا الناس وهمومهم ومشاغلهم .. كما أن هذه الهموم والمشاغل لم تضع – أبداً – فاصلاً بينه وبين مهمته اليومية الموصولة في التقرّب إلى الله ، وتلبية نداءات الروح وأشواقها.

وعلى مدى الزمن المتطاول ، لم تستطع قوة في الأرض أن تفك الارتباط – داخل المسجد – بين القطبين .. إذا كانت في الخارج قد تمكنت – في بعض المراحل – من هدفها بقوة القسر والإرهاب ، إذا كانت قد جرّدت الحياة الإسلامية من توافقها الأبدي بين الدين والدنيا بحدّ السيف ، فإنها داخل المسجد عجزت تماماً ، ولجأت – مرغمة – إلى اعتماد كل الأساليب الغادرة ، واللا مشروعة ، لوقف المسجد عن أداء دوره الذي ما عرفه معبد من المعابد أو دين من الأديان.

ومنذ اللحظات الأولى مارس المسجد منظومة من الوظائف التي كانت تضخّ الدماء ، دقيقة بدقيقة ، في جسد المجتمع المسلم ، وتعينه في كل مكان من خارطة دنيا الإسلام ، فتعبئه في مواجهة المطالب المتجددة وتعينه على مواصلة التحقق والتنامي والصعود.

شهدت باحاته التعبدّي والدعوي والتربوي والتعليمي والثقافي والاجتماعي والسياسي والعسكري .. والحضاري في نهاية الأمر.

ودائماً كان " المشروع الإسلامي " يجد في المسجد فرصته المواتية ونقطة تشكلّه وانطلاقه، كما كان يجد فيه – في الوقت نفسه – ملاذه الذي يأوي إليه كلما حزب الأمر وأظلم الأفق وأدلهمّت الخطوب.

من وحي انتفاضة الأقصى :

المسجد منطلقاً وملاذاً (٢)

ما من حلقة في تاريخ المجتمعات البشرية أكثر خصباً من هذه : المسجد الذي غدا بحكم مهماته الوظيفية ، وشبكة التقاليد التي تشكلت في باحاته ، أشد المرايا صدقاً وصفاءً في التعبير عن الحياة الإسلامية التي كان يلتقي فيها دائماً : الروحي بالجسدي ، والمغيب بالمنظور ، والسماء بالأرض ، والآخرة بالدنيا ، والفرد بالجماعة ، والعقل بالوجدان ، والقدر بالحرية ، والخلود بالفناء ، والله بالإنسان.

ها هنا يجد الإنسان نفسه قبالة المنظور الإسلامي للكون والحياة والإنسان والوجود والمصير ، وهو يتحقق لحظة بلحظة ، ويرفع خطابه المتميّز للناس أجمعين.

كل مفردات المسجد المادية والروحية تشارك في تأكيد المنظور ، وتحويله إلى واقع يومي مرئي ومعيش ..

المنائر الصاعدة – كالسهم – إلى السماء تشهد – صباح مساء – ألاّ إله إلاّ الله .. القباب المتكورة المنطوية على الخشوع والتسليم ..

التزيينات الخطية والزخرفية التي تجابه الفراغ فتملؤه بكلمة الله ، وتمنحه الجمال الذي يحبّه الله (جلّ في علاه) ..

الأصوات " البشرية " الندية التي ترفع النداء خمس مرات في اليوم ، بالحنجرة البشرية نفسها ، وليس بمعدن وفجوات البوق أو الناقوس .. اللقاءات الجماعية اليومية حيث يقف الجميع صفاً واحداً قبالة الله ، فليس ثمة غنيّ أو فقير .. الاستغراق الروحي الذي يشحذ المسلم ويعينه على مواصلة الصعود إلى الأعلى ، واستمراء أعباء رحلة الليل والنهار ..

التدارس الموصول للعلم وتلبية الأشواق العقلية للتعرف على الأشياء واكتشاف المجاهيل .. الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة والكلمة .. وغيرها عشرات الممارسات التي ارتبطت بالمسجد وأصبحت تقاليد دائمة يحرص المسلم على احترامها وتنفيذها ، وحمايتها من الانتقاص والعدوان.

بمنظور الطائر ، من فوق ، يمكن للمرء أن يتخيّل عند كل نداء يرفع لواحدة من الصلوات الخمس ، كيف يتدفق آلاف المسلمين وملايينهم في مدن العالم كلّه إلى المساجد لكي يلبّوا النداء .. إنها تظاهرة مثيرة ، أو حشد جماهيري ، يتكرر عبر اليوم الواحد خمس مرات .. ما شهدته أمة أخرى في الأرض.

ويمكن للمرء – كذلك – أن يتخيّلهم وهم يغادرون المساجد لكي ينتشروا في الأرض ، فيكون الذهاب والإياب حواراً مبدعاً يتداخل في نسيجه نبض الدين والدنيا ، ويصيران شيئاً متوحداً يصعب فصله ، لأنه يعيد التجربة مرة ومرتين وخمس مرات في اليوم الواحد .. وتتكرر

المحاولة يوماً بيوم وشهراً بشهر وسنة بسنة وعقداً بعقد وقرناً بقرن إلى أن يشاء الله فيرث الأرض ومن عليها.

بإيجاز شديد ، يبدو المسجد في الحياة الإسلامية ، إشارة الوفاق والتناغم والتصالح بين كل شيء في هذا الوجود .. والخليّة التي تخفق كما الأشياء والخلائق والشموس والأقمار والنجوم والسُدّم والذرات .. وتسبّح بحمد الله .. وهي تتوجه إليه ، وترجو رضاه في المسير والمصير.

من وحي انتفاضة الأقصى :

المسجد منطلقاً وملاذاً (٣)

الآخر ، من غير المسلمين ، يملك القدرة على الاكتشاف لأنه يجيء من خارج دائرة الإسلام .. فأول ما يبهره وهو يدلف إلى شرايين الحياة الإسلامية المسجد .. المعمار والوظيفة .. هذا التفرّد الذي ما عرفته الأديان والمجتمعات الأخرى .. بدءاً بالحجارة التي يقام بها المسجد ، والتي تكاد تصلّي ، إذا استخدمنا عبارة جارودي ، وانتهاءً بالريازة والطراز الذي أريد له أن يرفع خطاباً معمارياً ينبض بالتوحيد .. مروراً بكل المفردات الأخرى.

وما لنا إلاّ أن ننصت إليهم وهم يتحدثون عن دهشتهم وإعجابهم وكشوفهم التي منحهم إياها المسجد بسخائه الفريد ؟!

الباحث والفنان الإنكليزي روم لاندو : " ليس من ريب في أن حافزاً لا واعياً نحو دمج السماوات دمجاً رمزياً في بيت العبادة ، هو الذي قاد المسلمين إلى تبني القبة وإلى إتقانها حتى الكمال. وفي إمكاننا القول إن المكعب والقبة معاً يمثلان رمزاً كاملاً لماهية الإسلام : وحدة العالمين المنظور وغير المنظور ، عالمي الأرض والسماء ". " إن قبة الصخرة ، وحمراء غرناطة ، ومساجد مصر وفارس وتركية التي لا تحصى ، هي شواهد باقية على إلهام فنيّ ليس أدنى من الإلهام الذي أوحى بالأكروبوليس والكاتدرائيات بأية حال ".

المفكر الفرنسي المسلم رجاء جارودي : " إن الجامع الذي تكاد حجارته نفسها تصلّي إنما هو مركز إشعاع لجميع فعاليات الأمة الإسلامية ، هو نقطة الالتقاء لجميع فنونها ". " كل الفنون في البلاد الإسلامية تؤدي إلى المسجد ، والمسجد إلى الصلاة ! ".

المستشرق الفرنسي جاك ريسلر : " في المسجد ينبض قلب الإسلام .. وفي أرجائه يحسّ المرء إحساساً حياً أنه بحضرة الله. الحق أنه لا شيء في المسجد إلاّ البساطة والجمال والتجانس ".

المؤرخ اللبناني المسيحي فيليب حتّي : " فيما كان بناء المساجد ينتشر شرقاً حتى بلغ الصين ، وغرباً حتى وصل الأندلس ، كان نمط البناء يتأثر بعناصر محلية من غير أن تتبدل خطته الأساسية تبدلاً يذكر. وبما كان المسجد مكاناً للعبادة فإن بناءه عموماً ظل معبّراً عن الإسلام تعبيراً عظيماً.

" وأما في أثناء تطوره في التاريخ فإنه كان صورة مصغرة لتطور الثقافة الإسلامية : تلك الثقافة التي كان المسجد تعبيراً صحيحاً عنها – فيما يتعلق بالأمم المختلفة – إذ هو يمثل بصورة ملموسة ذلك التفاعل بين الإسلام وبين جيرانه ". " ما يكاد المسلم يدخل الصحن الذي ينكشف للسماء والذي تحيط به الأروقة ، حتى يجد في نفسه ميلاً شديداً إلى الانعتاق من البيئة المادية

التي حوله ، ثم نزوعاً في الوقت نفسه إلى السموّ نحو الملأ الأعلى. وهذه المئذنة الطويلة الرشيقة أشبه بالإصبع التي تنتصب مشيرة إلى السماء.

" وأما في جوف المسجد فإن القبة المتلألئة بالمصابيح تبدو وكأنها صورة منقولة عن قبة السماء. وكذلك المحراب المزخرف بالأشكال والأغصان ، والمزيّن بالآيات الكريمة ، فإنه يوجه القلب إلى مصدر الهدى والإيمان ".

" والأعمدة التي تتوالى في صفوف لا تكاد العين أن ترى آخرها ، توحي بأنها لا تتناهى. وهؤلاء المصلون حولك (معاً أو فرادى في كل مكان من المسجد) يولدون في النفس شعوراً بمشاركة في اخوة تسع العالم كلّه ".

المستشرقة الألمانية سيجريد هونكه : " .. الصلاة للجميع على قدم المساواة .. والكل سواسية كأسنان المشط. وقد كان هذا الأساس الديمقراطي للإسلام هو الذي جعل المساجد تتسع ولا ترتفع لتضم مزيداً من الأروقة للمؤمنين المتساوين في الحقوق والواجبات ".

هذا غيض من فيض ، فما قالوه أكثر بكثير .. ليس هذا فحسب بل إن بعضهم وجد نفسه مرغماً على الاستجابة لنداء المسجد بعد أن عاينه عن كثب وظيفة ومعماراً ، فانتمى إلى هذا الدين ، وكان المسجد نقطة الجذب الأولى ، والصوت المبكر الذي فاء به إلى باحة الإيمان والتوحيد.

ويكفي أن نتذكر ما قاله ليوبولد فايس (محمد أسد فيما بعد) وهو يتحدث في كتابه المعروف: (الطريق إلى مكة) عن زيارته الأولى لجامع بني أمية الكبير في دمشق ، ووقوفه مندهشاً بجوار صفوف المصليّن وهم يؤدون لقاءهم اليومي قبالة الله (سبحانه وتعالى)..

ثمة أشياء كثيرة قيلت .. وهم يديرون كاميراتهم لالتقاط الصورة من زوايا مختلفة .. وكل لقطة تجيء تغني الصورة وتعمقها وتزيدها توافقاً وجمالاً .. ومع ذلك تظل أشياء أخرى كثيرة لم تكتب أو تُر ، بعد .. ولعلّ الأجيال الأخرى من القادمين من خارج دائرة الإسلام ، سترحل هي الأخرى إلى مدن الإسلام وترى وتلمس وتسمع ، وهي تطل على المسجد عن كثب ، وقد تقودها المحاولة إلى الانتماء إلى هذا الدين ، كما قادت الكثيرين من قبل ، فليس ثمة كالمسجد الإسلامي فرصةً مفتوحة لرفع الخطاب الدعوي ، المنطقي ، المحكم ، المترع – في الوقت نفسه بغني الروح والوجدان – صوتاً يهدي الحيارى والضائعين إلى الصراط ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

يكفي أن يجدوا فيه ، ربما لأول مرة في حياتهم ، لقاء الله سبحانه بالإنسان ، والسماء بالأرض ، والروح بالجسد ، والآخرة بالدنيا .. وتوق العقل بوهج الروح .. يكفي أن يمنحهم الوفاق الضائع بين أقطاب الكون والوجود ، وحيثيات الإنسان نفسه ، لكي ما تلبث الرؤية الفريدة أن تخترق قناعاتهم حتى أعمق طبقة في وجدانهم ، وتدلّهم على الطريق ..

من وحي انتفاضة الأقصى :

المسجد منطلقاً وملاذاً (٤)

منذ اللحظات الأولى التحم المسجد بتاريخ هذه الأمة ، وأصبح المنطلق والملاذ .. منذ وضع اللبنات الأولى لمسجد المدينة ، بأيدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصحبه الأبرار، وإقامته بنياناً متواضعاً بسيطاً .. صار المسجد الزاوية لصياغة تاريخ هذه الأمة ، أو إعادة صياغته.

كلما حزب الأمر وتداعت الأمم على الأرض الإسلامية تريد أن تولم عليها.

وفي الحالتين : الصياغة وإعادة الصياغة ، كان الفعل التاريخي يستهدف وضع الأمة في مكانها الصحيح بين الأمم ، وتعميق ملامح تفرّدها ، وحمايتها من العدوان ، وتأكيد نبض التوحيد في وجودها ، ومنحه القدرة المتواصلة على الإشعاع والخفقان.

وثمة صيغ شتى مارسها المسجد وهو يؤكد دوره التاريخي في المسير والمصير ، يمكن أن يكون الحشد العقدي والنفسي والروحي لأبناء هذه الأمة ، واحداً من أبرزها ولا ريب. ولكن ، قبل أن نؤشر على بعض الشواهد التاريخية لهذا الحشد ، علينا أن نتذكر الرؤية التكاملية لوظيفة المسجد التربوية والدعوية والتعليمية .. والحضارية في نهاية الأمر .. وهي رؤية متوازنة ما عرفتها أمة أو جماعة أخرى في الأرض ، ولا مارسها معبد من المعابد في العالم .. رؤية تعرف كيف تمسك بخيوط الشخصية من أطرافها كافة ، وتسعى لأن تمضي بها في رحلة التحقق والصعود بتوازٍ مدهش لا يضيع فيه أو يتناسى أي قطب على الإطلاق.

لقد كانت تربية العقل بالتفكر والتدبر ، والروح بالتعبّد والتذكر ، والجسد بمهارات الفروسية والقتال ، هي أضلاع المثلث الذي حرص هذا الدين على أن يجعل من المسجد إحدى مدارسه الكبرى لحمايتها من التآكل أو الاختلال ، وعمل بشكل موصول على منح الفرصة كاملة للمكونات الثلاثة على أن تجد سبيلها للتنامي والتسامي والانطلاق.

من أجل ذلك أصبح المسجد منجماً دائماً يغذي الحياة الإسلامية بالعلماء والمتعبّدين والمجاهدين ، ليس بصيغة فرق أو صفوف ينفصل بعضها عن الآخر ، وإنما بالتحام إنساني مدهش يصير فيه المسلم – في الوقت نفسه – عالماً وعابداً ومجاهداً ، وبهذه القدرات المركبّة والمتكاملة التي كان المسجد يحرسها وينمَيها ، شهد تاريخ الإسلام أجيالاً من الناس كانوا قديرين على جعل الحياة الإسلامية تتلقى باستمرار ما يمكنها من مجابهة التحديات ومواصلة المسير.

ولنرجع إلى الحشد العقدي والنفسي والروحي الذي نفذه المسجد في لحظات التحدي والخطر الذي كان يحيق بالأمة الإسلامية بين الحين والحين .. هنا وهناك ..

الوقائع كثيرة كالسيل ، وهي تطل برأسها في كل زمان ومكان .. إنها جزء من تاريخ أمة تداعى عليها الخصوم والأعداء ، لكنها كانت تخرج من المحنة أغلب الأحيان وقد استطاعت أن تحمي وجودها من الفناء وبنيانها من التآكل والدمار.

ولن تتسع حلقات كهذه لاستعراض الدور التاريخي للمسجد ، فهو يمتد على مدى أربعة عشر قرناً ، وينتشر على طول خارطة عالم الإسلام ، وعرضها. ولابدّ – إذن – من الاكتفاء في الحلقة القادمة ببعض الشواهد التي قد تغني عن المزيد.

من وحي انتفاضة الأقصى :

المسجد منطلقاً وملاذاً (٥)

كان الجهاد ضد الكفار ، ومدافعة العدوان ، وحماية بيضة الإسلام ، واختراق خطوط الخصم ، ومدّ رقعة دار الإسلام ، تقليداً يومياً لجماهير المسلمين .. نبضهم الذي به يخفقون ويواصلون الحياة والنماء .. وعندما كان التوافق يتحقق بين الجماهير والقيادة أو السلطة ، يتم المطلوب ، وتحدث المعجزات ، ويمضي عالم الإسلام يؤدي مهمته التي أرادها له الله ورسوله في الأرض. ولكن ، وبين الحين والحين ، ولأسباب شتى ، كانت السلطة تتباطأ عن أداء دورها هذا أو تعجز عن تنفيذه ، وتنفصل بمرور الوقت عن هموم الجماهير المسلمة فلا تستجيب لمطالبها الملّحة في مواصلة الجهاد .. حينذاك كانت الجماهير تتخذ من المسجد نقطة ارتكاز لإعلان غضبها ، وإسماع صوتها للسلطان .. فكانت تتجه إلى هناك منادية بشعار الجهاد ضد الأعداء ولا ترجع إلاّ بعد أن تكون قد تلّقت الوعد باستئناف وتوفير الشروط الضرورية لتحققه.

وبمجرّد مرور سريع على حوليات المؤرخين البغداديين كابن الجوزي مثلاً ، في " المنتظم " يستطيع المرء أن يتابع تكراراً للمشهد نفسه حيناً بعد حين زمن الاختراق البيزنطي لخط الثغور ، أو الهجوم الصليبي على ديار الجزيرة الفراتية والشام وفلسطين.

جماهير المسلمين وهي تزحف صوب المسجد الجامع لكي ترفع خطابها ومطالبها هناك : إعلان الجهاد ، ومدافعة الخصم ، وتحرير الأرض.

وفي " مرآة الزمان " بنقلنا الحفيد : سبط بن الجوزي إلى دمشق ، ويحدّثنا في أكثر من مكان عن اجتماعات حاشدة عقدها علماء الإسلام ، وقادة الأمة في المسجد الأموي الجامع ، لحشد الجماهير لجهاد الصليبيين الغزاة ، والدعوة للتبّرع بالمال لدعم المجاهدين وتمكينهم من تحقيق أهدافهم.

وثمة واقعة يكاد يعرفها الجميع : ذلك الاجتماع الحاشد الذي شهدته باحات الجامع الأموي، والذي وقف فيه سبط بن الجوزي خطيباً ، ونادى بالتطوع بالمال والرجال لجهاد الصليبيين ، حيث التم حوله ألوف المقاتلين ، وتكدّست بين يديه أكوام الذهب والفضة .. والنسوة خلعن زينتهن ووضعنها بين يديه .. ومن لم تكن منهن تملك ذهباً قصت جدائلها ووضعتها بين يديه لكي يتخذها لجماً للخيول المغيرة باسم الله على مواقع الغزاة .. وخرج السبط نفسه يقود المجاهدين وأغار بهم على مواقع الفرنجة وألحق بهم أذى كبيراً .. وغنم الكثير من المتاع.

فيما بعد ، عندما دهيت مصر بالصليبية الجديدة متمثلة بالغزو الفرنسي الذي قاده نابليون بونابرت ، وأعلنت القاهرة ثورتها الأولى والثانية ضد الغزاة ، كان الجامع الأزهر هو المنطلق والملاذ ، في باحاته كانت تتشكل خلايا المجاهدين ، وإليه تؤوب بعد كل جولة .. وعبر بواباته

كانت خيولهم تنطلق لمقارعة الفرنسيين .. وفي أروقته رسم المجاهد سليمان الحلبي مع إخوانه خطته المحكمة لاغتيال خليفة نابليون في مصر الجنرال كليبر ونفذها بنجاح.

ثم جاءت موجة الاستعمار القديم لكي تضرب عالم الإسلام من أقصاه إلى أقصاه ، فما استعصى عليها شيء إلاّ المسجد الذي ظل يمارس دوره الفعال ، بؤرة يتجمع عندها ويتمحور فيها مقاومو العدوان والمجاهدون لتحرير البلاد والعباد.

وكلّنا يذكر ، ونحن لا زلنا بعد في مرحلة الطفولة ، كيف كان زعماء الإسلام وخطباؤه يلجأون إلى المساجد لكي يتخذوا منها نقطة ارتكاز للحشد المعنوي والمادي ضد الاستعمار .. ليس هذا فحسب ، بل إنه من خلال المسجد قدرت الأمة على حماية شخصيتها ، وعقيدتها ، وتراثها ، ولغتها ، من التآكل والفناء.

وهل بمقدور أحد أن ينسى الدور الخطير الذي نفذه جامع الزيتونة في تونس ، والقرويين في فاس ، والجوامع الكبرى في الجزائر وليبيا وغيرهما من ديار المغرب لتحقيق هذا الهدف العزيز ؟ حماية شخصية الأمة المسلمة قبالة واحدة من أشد الهجمات شراسة وعنفاً ، استهدفت تدمير مقوّمات الأمة وإرغامها على الفناء في كيان الغالب.

وما تلا ذلك معروف ، موجة الاستعمار الجديد والغزو الفكري والاختراق الثقافي .. وصولاً إلى تقنيات الإعلام ذات الفاعلية المذهلة والإذاعة والسينما والتلفاز والصحيفة والمجلة والمسرح والكاسيت والفيديو والأنترنيت والفضائيات .. هذه التقنيات التي كان بمقدورها – بقوة قاعدة الأواني المستطرقة – أن تكتسح نقاط الارتكاز والتميّز في حياة المجتمعات الإسلامية المعاصرة وثقافتها ، وأن ترغمها على الانخراط في ثقافة الغير ، وقبول تقاليده ، ورؤيته للحياة.

ومرة أخرى ، ينهض المسجد لأداء دوره في مجابهة الغزو الجديد ، وتحصين الأمة المسلمة إزاء عوامل وجودها ومصيرها من نذر السوء.

وها هو المسجد ، عبر اللحظات الراهنة ، يتلقى دفق العناصر الشابة ، من أقصى عالم الإسلام إلى أقصاه ، فيحصنها ويحميها ويؤصل شخصيتها الإسلامية ويعمّق ملامحها ، ويعبئها روحياً واجتماعياً وثقافياً قبالة التحديات .. ثم يدفع بها إلى مجرى الحياة اليومية ، قديرة على الفعل المدهش والحضور المؤكد والانتشار في نسيج الحياة الإسلامية في مواجهة كل صنوف الضغط ، والهدم والحصار والإرهاب ، مما أعيى الخصوم ، واسقط خيارهم الذي استهدف الإطاحة بالحياة الإسلامية من الجذور ، وإرغامها على التبعية والتغرّب والضياع ، وأعطى الوعد باستئناف هذه الحياة التي تليق بالإنسان ، في زمن الصحوة التي كان المسجد نقطة الارتكاز فيها ، والبيئة التي منحتها الوقود والزاد.

من وحي انتفاضة الأقصى :

المسجد منطلقاً وملاذاً (٦)

إزاء هذا الذي تحدثنا عنه في الحلقة السابقة ، فإن المسجد لم ينج من مؤامرات الخصوم والأصدقاء في الداخل والخارج !

ولقد كان هذا أمراً طبيعياً تماماً .. بل إن عدم التآمر على المسجد هو الأمر غير الطبيعي، فإن دوره المؤكد في تعبئة الطاقة الإسلامية وشحنها ، وتحفيزها على الفعل ، ودفعها للأداء في أعلى وتائره ، كان يضع قبالة أهداف الآخر ومصالحه ، خطوطاً متعاقبة من الخنادق والسدود والأسلاك الشائكة ، ويصدّه عن اختراق الجماعة المسلمة وابتزازها وتحويلها عن أهدافها الأساسية الكبرى.

بدأت المؤامرة على المسجد منذ لحظات مبكرة من تاريخ الإسلام ، واستمرت حتى اللحظات الراهنة .. وستمضي – بالتأكيد – تنسج خيوطها ، علناً وفي الخفاء ، إلى ان يرث الله الأرض ومن عليها.

ولقد اعتمدت المؤامرة أساليب وصيغاً شتى عبر مراحل التاريخ المختلفة لتحقيق أهدافها ، وكانت تتحول من حال إلى حال وفق مقتضيات المرحلة ومطالب اللحظة التاريخية .. لم تكلّ ولم تملّ ، ولم تدع وسيلة ممكنة ، أخلاقية أو غير أخلاقية ، مقبولة أو مستهجنة ، إلاّ استدعتها لتحقيق هدفها .. المهم هو وقف المسجد عن أداء وظيفته ، أو الانحراف به عنها ، أو – إذا استحال هذا وذاك – السعي إلى خفض وتائر فاعلية المسجد وسحبها إلى حدودها الدنيا.

ابتداءً من تجربة " مسجد الضرار " المسمومة في عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، مروراً " بالخطة الأمنية " لمكافحة دور المسجد في الحياة العامة ، والتي رسمتها ونفذتها بعض النظم العربية المعاصرة ، وبمحاولات " التخريب " و" التحويل " و" التجميد " .. وصولاً إلى زيارة الإرهابي شارون للمسجد الأقصى في الخريف الماضي .. كان الهدف هو الهدف : كفّ المسجد عن العمل ، أو تحجيم فاعليته على الأقل ، هذه الفاعلية التي كانوا يدركون جيداً أنها تبدأ بالشعائر والممارسات الروحية ، ولكنها تمضي بقوة العقيدة الإسلامية ، وتلاحم مقاصد الشريعة مع الحياة ، لكي تصوغ أو تعيد صياغة الحياة بما يريده الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) لا ما يريده الطاغوت ويهواه.

إن الزعامات الوضعية كانت تدرك جيداً أن ترك المسجد يعمل بحرّية تامة ، معناه أنه سيمضي لكي يكتسح مواقعهم ويضيق الخناق عليهم ويسقط مبرّرات وجودهم الواحدة تلو الأخرى، ويسحب البساط من تحت أقدامهم ، ويفك الارتباط بينهم وبين الجماهير المستعبدة لكي يحرّرها ويضعها في نقطة البداية الصحيحة .. وان شعار " لا إله إلاّ الله " الذي يرتفع من

المسجد خمس مرات في اليوم الواحد ، كان ينطوي على كل معاني التحرّر والرفض والثورة التي تستهدف ردّ الأمور إلى نصابها الحقّ ، وتنفيذ حاكمية الله ومنهجه في الأرض ، وإزاحة طغيان الطواغيت وتسلّطهم ومناهجهم.

وكان المسجد وهو ينطلق من بؤرة العبادة في صيغها الشعائرية ، يمضي بدوائره المنداحة أبداً صوب الخارج ، لكي يبسط جناحيه على الحياة في مجراها العام ، ويضع بصماته على نسقها الحضاري في نهاية الأمر.

من الفرد إلى الجماعة .. ومن الجماعة إلى الأمة .. ومن العبادة إلى المجتمع .. ومن المجتمع إلى الحضارة.

حركة متنامية تمتد في الطول والعرض والعمق ، لا يكاد يوقفها شيء عن المضي إلى أهدافها في إعادة صياغة الحياة وحمايتها في الوقت نفسه من التراجع والتزييف والانكماش.

كان المتآمرون يدركون هذا كلّه فاستنفروا قدراتهم لحصار الظاهرة وكفّها عن العمل ..

نجحوا في بعض محاولاتهم .. وأخفقوا في معظمها .. فما زادهم ذلك إلاّ إصراراً ..

والذي كان يتغير هو الخطط والأساليب .. ويظل الهدف هو الهدف.

ها هنا أيضاً تزدحم الشواهد والوقائع والمرويات .. وقد قيل فيها الكثير وكتب الكثير ، ولن يتسع المجال للوقوف عندها طويلاً .. ولذا سنكتفي – في الحلقة القادمة – ببعض التأشيرات التي قد تغني عن التفاصيل.

من وحي انتفاضة الأقصى :

المسجد منطلقاً وملاذاً (٧)

يمثل مسجد الضرار الذي أقامه المنافقون في أخريات عصر الرسالة محاولة مبكرة في هذا الاتجاه : تخريب المجتمع الإسلامي من الداخل بعد أن أعيت المنافقين كل الحيل والأساليب لوقف الدعوة الإسلامية أو تحجيمها.

وها هي الآن تسعى في ظاهر الأمر إلى مزيد من الاندماج في المجتمع المسلم وإلى اعتماد مؤسساته نفسها كالمسجد الذي هو رمز العبادة الإسلامية وحرمها للوصول إلى أهدافها بضمان أكبر ، حيث سيحقق لها ذلك العمل خفاءً أكثر ويظهر من نيّاتها وأعمالها ما هو طيب مقبول ، ولكنه سيؤدي في الوقت نفسه إلى تمزّق وانشقاق في قلب المجتمع الإسلامي ، وفي أي شيء ؟ في المسجد الذي هو مركز الجماعة الإسلامية ومنطلق نشاطاتها المختلفة وقلبها الذي لا يكف عن الخفقان ..

ومن هناك ، وبعد المباركة التي سيمنحها الرسول (صلى الله عليه وسلم) مسجدهم هذا ، سينطلق المنافقون ، وقد أبدوا نية حسنة ، وبنوا مسجداً جديداً ، لاستقطاب العناصر القلقة في المجتمع الإسلامي ، وضمّها إلى صفوفهم ، وتوسيع قواعدهم بين المسلمين ، وإطلاق الشائعات، وبذل نشاط واسع من هذا المسجد للاتصال بغير المسلمين كذلك ورسم الخطط وتحديد أساليب العمل وهم في حماية من غضبة المسلمين وفي أمان من الانكشاف.

لكن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فوّت عليهم الفرصة بأن أمر بإحراق المسجد وتهديمه !!

وإذا كانت تجربة " الضرار " هذه تعطينا نموذجاً لتخريب وظيفة المسجد من الداخل على أيدي فئات تلبس لبوسه ، فإن تقلّبات التاريخ قدّمت لنا نماذج أخرى من التخريب من " الخارج " على أيدي خصوم هذا الدين وأعدائه الذين كانوا يكشفون عن أهدافهم كاملة .. سواء كانوا من الغزاة القادمين من خارج جغرافية عالم الإسلام ، أو من ذيولهم وأتباعهم داخل هذه الجغرافيا .. والهدف هو الهدف : وقف المسجد عن العمل وكفه عن الخفقان ، والتأثير ، في نبض الحياة اليومية لجماهير المسلمين.

الفرنسيون الغزاة عندما اقتحموا مصر بقيادة نابليون بونابرت دخلوا بخيولهم الأزهر وعاثوا فيه فساداً .. وفيما بعد شهدت الجزائر وتونس والمغرب الهجمة نفسها التي لم تكتف باحتلال المسجد وتحويله إلى ثكنة عسكرية وإنما هدمه إذا اقتضى الأمر.

في إسبانيا الكاثوليكية ، زمن فرديناند وإيزابيلا ، وفي الاتحاد السوفياتي الشيوعي زمن لينين وستالين .. تم التعامل مع المسجد بصيغة أخرى هي التحويل .. ففي الأولى حوّل العديد

منها إلى كنائس تقام فيها الطقوس النصرانية ، وفي الثانية إلى مؤسسات لتلقين الكفر والإلحاد .. أو – إذا اقتضى الأمر – إلى حظائر وإسطبلات للخيول والبغال. أما في تركيا الكمالية فقد اعتمد أسلوب " التجميد " فأقفلت بعض الجوامع وحوّل بعضها الآخر إلى متاحف يرتادها الزوّار والسائحون ، ومنعت إقامة الصلوات فيها ، واعتبر ذلك جريمة يعاقب عليها القانون.

ثم ما يلبث الزمن أن يدور لكي يعود كهيئته الأولى ، فتشهد بعض البلدان محاولات جديدة لتجربة الضرار ، أكثر " معاصرة " وأشدّ دهاءً ومكراً ، حيث يراد للمسجد – كرة أخرى – أن ينقض وظيفته بنفسه ، وأن يمارس دوراً معكوساً من خلال المفردات ذاتها التي تبدو في ظاهرها عبادة وتقرّباً إلى الله ، ولكنها في حقيقتها سعي محموم لتدمير دور المسجد ، وفك الارتباط بينه وبين المجتمع ، وكفّه عن الخفقان.

إنهم يفهمون جيداً أن إقفال المسجد ، أو منع المسلمين من الصلاة ، سيؤلب عليهم " الرأي العام " الذي يشكل المسجد نقطة الارتكاز في حياته اليومية .. وسيجعلهم يخسرون أكثر بكثير مما يكسبون .. ويعرفون كذلك ان جلّ محاولات الهجوم على المسجد من الخارج لم تأت بطائل ، بل على العكس ما زادت المسلم إلا تشبثاً بموقفه وإصراراً على المضي إلى أهدافه رغم كل العوائق والمتاريس.

وإذن فليس ثمة بدّ من استعادة تجربة الضرار في القرن العشرين وضرب المسجد من الداخل ، ومن خلال شعارات ولافتات إسلامية تؤول في نهاية الأمر إلى إفراغ المسجد من محتواه وتحويله إلى مؤسسة رسمية تقدّم خدماتها اليومية للسلطان ، وتقطع الطريق على الدعاة في ممارسة أي دور فاعل في مجرى الحياة.

من وحي انتفاضة الأقصى :

المسجد منطلقاً وملاذاً (الحلقة الأخيرة)

والآن .. فإنه ما من مسجد ، بعد الحرمين الشريفين في مكة والمدينة ، ارتبط بهموم الأمة، أو التحم بها بعبارة أخرى ، كالمسجد الأقصى : أولى القبلتين ، وموطن الأنبياء عليهم السلام ، ومسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقلب فلسطين النابض ، وزهرة بيوت الله فيها.

لقد كان نقطة الارتكاز وبؤرة المنظور في البانوراما الفلسطينية عبر العصور : عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وهو يدخل بيت المقدس فاتحاً لكي يتسلّم مفاتيحها من الأب صفر ونيوس .. الناصر صلاح الدين وهو يعود إليه محرّراً بعد تسعين سنة من الأسر .. نور الدين محمود ، قبله بعشرين سنة ، يأمر بصنع محراب أنيق لكي تلقى عليه أول خطبة جمعة بعد التحرير .. السلطان عبد الحميد الثاني وهو يضحّي بنفسه وعرشه على أن يعطي اليهود موطئ قدم يفتح أمامهم الطريق إليه .. عصر الانتداب البريطاني اللعين حيث تنطلق الانتفاضات والثورات من المسجد الأقصى وتؤوب إليه .. عقود الاستلاب الصهيوني ، بعد قيام إسرائيل المغتصبة ، حيث يظلّ المنطلق والملاذ.

جلّ الانتفاضات الكبرى في تاريخ فلسطين المعاصر قبالة " إسرائيل " كان المسجد الأقصى رحمها الذي تتشكل فيه ، وتستمد منه النبض والنسغ ..

وبمرور الوقت أصبح الأب والأم لكل فلسطيني يحرص على أن ترجع إليه فلسطين كرة أخرى ، وأن يرجع هو إلى فلسطين .. ليس ثمة فاصل أبداً بين المقدّسات والقضية .. هذه هي تلك وتلك هي هذه .. والذين حاولوا إقامة الجدار ضاعوا وطواهم التاريخ ، ولم يتبق ثمة سوى الصوت الواحد الذي تتداخل في أوتاره نداءات المؤذنين ، وأدعية المصلّين ، وصرخات المتظاهرين ، ورصاص المجاهدين ، وفورة دماء الشهداء ..

والذين يحرصون على حماية " المقدّس " في فلسطين ، ينطوي حلمهم الكبير على حماية الأرض .. والقضية .. والذين يقاتلون من أجل الأرض والقضية ، يضعون أرواحهم على أكفّهم فداءً للمسجد الأقصى ..

ومنذ اللحظات الأولى أدرك اليهود هذا ، وكانوا يتمنوّن ، بلسان الحال حيناً والمقال أحياناً، أنّ لو تسوّى بالمسجد الأقصى الأرض ، ليس فقط للعثور على بقايا الهيكل المزعوم .. ولكن لقطع الشريان الفوّار الذي كان ولا يزال يضخّ الدم والحياة ، ليس للقدس وحدها ، ولكن لجغرافية فلسطين من الداروم شمالاً حتى النقب في أقصى الجنوب.

وما بين محاولة إحراق المسجد الأقصى بعد نكسة حزيران الأسود ، ودخول شارون على رأس ثلاثة آلاف من جند العدوّ قبل أشهر معدودات ، كان الردّ الفلسطيني بصيغة انتفاضات

كبرى تستغرق الأشهر والسنوات لأن التحدّي هذه المرة يستهدف قطع الشريان وإباحة النزيف .. وكان لابدّ للردّ أن يكون موازياً لهذا التحدّي الخطير.

الآن عبر الانتفاضة الكبرى الراهنة ، يتضح كل شيء .. تتكشف الحقائق كما هي تماماً ، دونما أي قدر من التحريف والتزوير.

إنها انتفاضة المسجد الأقصى بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معنى ، حيث تتوحّد الهموم والأهداف والقوى الفاعلة في بؤرة واحدة : العقيدة والتاريخ والمقدّسات والقضية ... وحيث يصير الفلسطيني والعربي والمسلم كائناً واحداً ..

وأية محاولة لفك الارتباط إنما هي خيانة لفلسطين .. وقبل هذا وذاك ، خيانة لله ورسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام).

– الخاتمة –

إذا أردنا لأمتنا الإسلامية أن تستأنف دورها الفعال في خرائط العالم ، ولحضارتنا أن تبعث من جديد .. فإن علينا أن نبدأ بالمسجد ، كما بدأ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مسيرته لبناء الدولة والأمة والحضارة .. فهو المنطلق والملاذ .. ويمكن إذا أحسن توظيفه وتمّت استجاشة الحدود القصوى المتاحة لقدراته التعبّدية ، والتثقيفية ، والدعوية ، أن يحقّق شيئاً كبيراً..

إن المسجد هو المؤسسة الوحيدة التي تغطي الزمن والمكان الإسلاميين ..

القلب الذي ينبض صباح مساء على مدى الوقت كله ، والذي يغطي ، بتوزيع عادل ، جغرافية عالم الإسلام من أقصاها إلى أقصاها.

إنه بهذا الحضور في قطبي الحركة التاريخية ، وبقدرته – في الوقت نفسه – على حشد الإنسان والجماعة المسلمة في مواجهة التحديات والمطالب والمتغيّرات ..

بهذا وذاك قدير على تأدية مهمته الوظيفية الكبرى.

وعلى مدى تاريخ الإسلام ، في امتداده وانحساره معاً ، كان المسجد يؤكد حضوره منطلقاً وملاذاً ..

وها هو ذا في اللحظات الراهنة زمن الصحوة الإسلامية ، يعد بإعادة صياغة المستقبل بما يريده الله ورسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام).

ولقد أدرك الخصوم أنفسهم هذا الذي يمكن أن ينفذه المسجد ، فنبّهوا إليه ، وحذّروا منه ، وأشعلوا إزاءه الإشارات الحمراء ، وقال اسحق رابين رئيس وزراء العدوّ السابق مقولته التي تغني عن الكثير : " فيوم أن تشهد صلوات الفجر في جوامع المسلمين الحشود نفسها التي تتدفق على المساجد أيام الجمع ، وعبر الأوقات الأخرى ، فحينذاك .. وحينذاك فقط ، ستتعرض دولة إسرائيل للخطر الحقيقي ".

حول نزيف الأدمغة وهجرة الأموال

{لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً } (النساء ، الآية ١٢٣) تلك هي إحدى المعادلات القرآنية الواضحة وضوح الشمس والقاطعة كالسكين .. لقد عملنا نحن كأمة ، عبر القرون الأخيرة سوءاً كثيراً ، فكان لابدّ أن يكون الحصاد مريراً ..

إحدى حلقات السوء هذه تتمثل في هجرة العقول العربية والإسلامية المتفوّقة إلى أمريكا ، فيما يسمى – بحق – " نزيف الأدمغة " الذي أفرغ الديار العربية والإسلامية من زهرة أبنائها ، وساقهم ، بقوّة إغراءات بريق تصعب مقاومته ، إلى ترك أهليهم وبلادهم ، وهي بأمسّ الحاجة إليهم ، والرحيل إلى أمريكا ، لكي يضيفوا إليها رصيداً كبيراً يعينها على المزيد من التقدّم العلمي والمادي ، وبالتالي المزيد من التفرّد بحكم العالم وتشديد قبضتها عليه.

إن كل فلسطيني يقتل ، وكل مسلم يتعرّض للجوع والقهر والأذى ، في مدى جغرافية الإسلام ، إنما يتحمل جانباً من جريمة قتله ، وتجويعه ، وقهره ، أولئك المتفوقون الذين آثروا الذهاب إلى أمريكا لكي يضعوا قدراتهم وعقولهم وكفاءاتهم تحت تصرف آلتها التقنية التي أخذ يتبين للعالم ، أكثر فأكثر ، انها لن تكفّ عن الدوران قبل أن تجعل الدنيا كلهّا بقرة حلوباً يدرّ ضرعها في فم الأمريكيين.

وبموازاة هذا السوء ، صنعنا سوءاً آخر لا يقل عنه أذى وهوْلاً .. ذلك هو " نزيف المال " فيما لم يشهد له التاريخ مثيلاً ..

إن فائض الأموال العربية والإسلامية يودع ويوظف في المؤسسات المالية والاقتصادية في ديار الغرب عموماً ، وفي أمريكا على وجه الخصوص ، وأصحاب رؤوس الأموال هذه إنما يمارسون بتصرّفهم هذا خطأين كبيرين ، والخطأ أكبر من الجريمة ، كما يقول السياسي الفرنسي (تاليران) .. فأما أولهما فهو حرمان بلدانهم من المال الذي يمكن أن يكون الأداة الأساسية لنقل هذه البلدان من حالة التخلف والفقر والفوضى الاقتصادية ، إلى التقدم والغنى والتخطيط العمراني المبرمج المرسوم. وأما ثانيهما فهو إعانة أمريكا على المزيد من الغنى ، والتقدّم التقني ، والتحقق بالأمن الغذائي ، والتحكم ، بالتالي ، من خلال هذه الآليات الكبرى الثلاث ، بمصائر الدول والأمم والشعوب.

وما يملأ المرء حزناً ، وهو يرى هذا النزيف يزداد تدفقاً واستنزافاً يوماً بعد يوم ، في سياقيه العلمي والمالي ، أن " إسرائيل " المغتصبة وجالياتها اليهودية المنتشرة في ديار الغرب، تفعل العكس تماماً ، فتلّم طاقات اليهود العقلية والمالية ، وتسوقها إلى إسرائيل لكي

تزيدها قوّة وغنى وتقدّما ، وبالتالي ، قدرة على تضييق الخناق على الفلسطينيين ، والعرب ، عموماً ، وتشبثاً بما اغتصبوه عبر حروبهم الثلاثة.

إن ألف سنة من الدعوة لتحرير فلسطين من قبضة إسرائيل المغتصبة لن تأتي بطائل ما لم نضع خطواتنا على الطريق الصحيح .. والطريق الصحيح يتطلب جملة شروط وممارسات، هذه إحداها : أن يكف نزيف العقول والأموال في ديارنا ، وأن تتحقق بدلاً عنه ، دعوة جادة ومخلصة لعودة هذه العقول والأموال إلى مواطنها الأصيلة لكي تعين الأمة التي أثخنتها الجراح على مواصلة طريق التقدّم والتحرير.

وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه : **{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }** (آل عمران ، الآية ١٦٥).

الخروج من التاريخ !!

أراد الله (سبحانه وتعالى) ورسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم) لهذه الأمة أن تكون في سقف العالم ، وفي قلب التاريخ والفعل الحضاري ، فاختارت – بسبب من عدم إصغائها جيداً للخطاب القرآني والنبوي – أن تنزل – بعد زمن التألق – إلى أسفل العالم ، وأن تنفي نفسها من التاريخ والحضارة ، وألاّ يكون لها في نهاية الأمر مكان بين الأمم رغم أنها تملك المنهج الذي يؤهلها لأن تقود العالم !

نحن اليوم بأمس الحاجة إلى تشخيص عوامل الانسحاب ، وتحديد البدائل التي يمكن أن تعيد أمتنا لأداء دورها القيادي المطلوب بما أنها الأمة المؤتمنة على مصير الإيمان في العالم ، المكلّفة بحمل أمانة الوحي القادم من السماء ، والمسؤولة عن ميراث النبوّات التي آلت إلى الرسالة الخاتمة.

إننا بحاجة إلى المزيد من التخطيط ، والمكر ، والقوّة ، ومرونة الأساليب ، والاستجابة لمطالب اللحظة التاريخية .. لتجاوز الارتجال ، والفوضى ، والسذاجة ، والضعف ، وتيبس أساليب العمل ، وغياب الوعي بقوانين الحركة التاريخية وسنن الله العاملة في الكون والوجود.

إن اليهود ، شذّاذ الآفاق ، المبعثرين في العالم ، تفوّقوا علينا ، واصبح لهم مكان بين الأمم .. بدينهم المحرّف ، وتراثهم الهزيل ، وتاريخهم المترع بالغدر والخيانة ، وتمرّدهم على شريعة الله والنبوّات .. وبناء دولتهم المغتصبة على الأساطير والضلالات والأكاذيب ..

تفوّقوا علينا ، لأنهم عرفوا كيف يخططون ، ويمكرون ، ويتحققون بالقوة ، ويصغون جيداً لمطالب اللحظة التاريخية.

ويتذكر المرء كيف أنهم برمجوا في مؤتمر (بازل) عام (١٨٩٧م) لقيام دولتهم المغتصبة في فلسطين على مدى نصف القرن من الزمن ، وكيف أنهم حققوا حلمهم هذا ، رغم سقوط مشروعيته منذ اللحظات الأولى ، وذلك بقوة المنهج ، والتعامل المدروس مع مطالب اللحظة التاريخية ، والمكر الدولي الذي تزول منه الجبال .. وكيف أننا – كأمة – اجتزنا رحلة نصف القرن نفسه ، ما بين قيام " إسرائيل " وحتى انصرام القرن العشرين دون أن نقطع خطوة واحدة باتجاه الأهداف .. والأهداف هي استعادة الأرض المغتصبة ، وتحريرها من قبضة شذّاذ الآفاق.

على المستوى الاقتصادي – على سبيل المثال – هل أقمنا سوقاً عربية إسلامية مشتركة ؟ على المستوى السياسي هل توحدّ بلدان في ديارنا الممزقة ؟ على المستوى الإعلامي هل حاولنا أن نطلع على العالم بوجه واحد ذي قسمات متميزة ، وليس بألف وجه ، وربما بوجه لا ملامح له على الإطلاق ؟ على المستوى التربوي .. الثقافي .. التعليمي .. هل اعتمدنا منهجاً صارماً

يستهدف حماية شخصيتنا الإسلامية إزاء كل عوامل التفكك والتحلّل والفناء ، في وقت يستدعي فيه العدو الصهيوني كل حيثيات دينه المتآكل من أجل التحقق بالاستمرار وتأكيد الوجود ؟

هم على مدى نصف القرن أقاموا دولة ، ونحن في المدى نفسه ما كدنا نصنع شيئاً !

إننا اليوم بأمس الحاجة إلى نذر ترفع خطابها لكي تحذر .. إلى علامات على الطريق تقول لنا : مرّوا من هنا .. تزّيثوا ها هنا .. توقفوا هناك ..

إن أجدادنا سادوا العالم يوم أن عرفوا كيف يكون الإمساك بالزمن والكتلة (أو المكان) كما أراد لهم كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) .. ألم يسمّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سورة بكاملها في كتاب الله باسم (سورة الحديد) ؟ ألم ترد في أخريات هذه السورة الآية الصريحة الواضحة التي تؤكد ضرورة الالتحام بالكتلة والكشف عن أسرارها ، واستخراج طاقاتها ، وتوظيفها للتحقّق بالقوة والعزة ، وأنه بدون ذلك لن تنفعنا ألف سنة من الدعاء في المساجد والمناسبات في أن ينصرنا الله على الخصم ، وأن يهلك خصومنا بعضهم ببعض ويخرجنا من بينهم سالمين ؟ : **{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }** (الحديد ، الآية ٢٥).

ألم يصف القرآن الكريم المؤمنين الجادّين بهم **{ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ... }** (المؤمنون ، الآية ٦١) **{... وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ }** (المؤمنون، الآية ٦١) بكل ما ينطوي عليه ذلك من دلالات زمنية مؤكدة ؟

ها نحن – إذن – قبالة دعوة قرآنية صريحة لتوظيف الزمن والكتلة ، ولم يتفوّق علينا شذّاذ الآفاق إلاّ بهذا التوظيف ، بغض النظر عن بطانته اللا أخلاقية التي تمرّس بها التكوين اليهودي على مدار التاريخ.

استدعاء العقيدة .. ذلك هو الطريق

في ديارنا العربية والإسلامية . في مؤسساتنا ودوائرنا المختلفة ، على مدى جغرافية العالم الإسلامي ، نعيش حالة فوضى وغياب للبرمجة والتخطيط ما شهدتها أمة من الأمم في التاريخ !

إننا نملك خامات بشرية غنية ، وقدرات إبداعية فائقة ، وطاقات عقلية لا تقل كفاءة عن أكثر الشعوب المتفوّقة تمدّناً وتقدّماً .. ولكن هذا كلّه يكاد يضيع في خضم الارتجال والتسيّب والتضارب وغياب البرمجة والتخطيط ، وتداخل الأولويات.

بل إن هناك ما هو أنكى من هذا ، إنه خطيئة هدر الطاقة ، بل حصارها وتضييق الخناق عليها ، وتدميرها إذا اقتضى الأمر وتعارضت معطياتها مع مطالب الطاغوت الخارجي حيناً ، والأهواء الداخلية حيناً آخر.

إن القدرة العقلية العربية أو الإسلامية لا تحمل قيمتها ابتداءً ، كما أراد لها الله سبحانه أن تكون ، وكما هو الحال – إلى حدّ كبير – في البلدان المتقدمة ، وإنما هي تكسب قيمتها بإضافتها إلى مطالب الأهواء وضرورات القسر والإكراه والتوظيف الذي كثيراً ما تنحرف به السبل فيتحول إلى الهدم بدلاً من البناء .. ويضيع.

أنظر – مثلاً – إلى شاشات التلفاز وهي تقّدم نقلاً مباشراً لإطلاق إحدى سفن الفضاء .. إن الكثيرين ممن يجلسون وراء أجهزة التوجيه هم من ديارنا العربية والإسلامية ما بين مصري أو باكستاني أو غاني .. الخ .. ما الذي جاء بهم إلى الولايات المتحدة لكي يقدموا خبراتهم الغنية في خدمة مراكز الفضاء ، سوى الإهمال الذي لقوه في ديارهم ، وغياب التقييم الحقيقي لقدراتهم المتفوّقة ، وفقر الإمكانات المادية والتقنية للإبداع والابتكار ، والفوضى التي تأخذ برقاب الحركة العلمية في طول هذا العالم وعرضه ؟

صحيح أن هذا كلّه لا يبرّر وضع قدراتهم تحت تصرّف الطاغوت الأمريكي الذي يتفرّد اليوم أو يحاول أن يتفرّد بمصير كرتنا الأرضية ، إلاّ أن واقع الحال هو هذا .. والدوافع عنيفة وقاهرة ، ولن يكون الحصاد المرير إلاّ من جنس ما صنعته أيدينا.

قد يقول قائل إن هذا ربما ينصب على حقل العلوم التطبيقية (التكنولوجيا) – وإلى حدّ ما – حقول (العلوم الصرفة) .. فما شأن العلوم الإنسانية التي تعجّ ديارنا العربية والإسلامية بالأفذاذ في فروعها المختلفة ؟

والجواب قد يقودنا إلى طرح احتمالات شتى لهذا الإحساس بالدونية إزاء الآخر ، ولكن يبقى الاحتمال الأولّ هو أن البيئة الغربية أتاحت لعلماء الإنسانيات أيضاً الفرصة الكاملة ، أو شبه الكاملة ، للتحقّق والتفوّق بما في ذلك البعد الإعلامي الذي يضفي على العالم الغربي ، أو الأستاذ الجامعي المتفوّق ، هالة من القداسة والإكبار.

أما في ديارنا فإن الفوضى – مرة أخرى – تغطي كل شيء فيضيع في غبارها ودواماتها التي تلفّ صباح مساء على غير هدى ، جلّ المتفوقين. بل إن هناك ما يمكن تسميته " مركب النقص " أو " عقدة النقص " التي هي وليدة خبرات متصلة من الإحباط الذي يقود إلى الإحساس بالدونية والنظر بإعجاب يفوق الحدود المنطقية ، إلى (الآخر) الذي أتاحت له شبكة الشروط التاريخية أن يستعمرنا في يوم من الأيام ، وأتاحت لحضارته أن تكون هي الحضارة الغالبة.

لكن هذا ليس هو قدرنا النهائي ، كما أن الاستسلام لهذا الضغط العقلي والنفسي قد يقودنا إلى الدمار .. أو في الأقل عدم مغادرة مواقعنا المتخلفة والتقدم إلى الأمام في محاولة جادة للّحاق بالخصم ، إن لم نقل التفوق عليه وهو أمر ليس مستحيلاً كما يخيل للمهزومين ، ولكنه ممكن شريطة أن نأخذ بالأسباب ونضع خطواتنا على البداية الصحيحة.

ودائماً تكون البداية الصحيحة هي استعادة الثقة بالذات ، ولن تتحقق هذه الاستعادة إلاّ باستدعاء العقيدة مرة أخرى ، فإنها – في الإسلام – تفعل الأفاعيل ، لأنها تملك شبكة الشروط الملائمة تماماً للنشوء الحضاري وتناميه.

ولنتذكر هنا عبارة روجيه (رجاء) جارودي المعروفة وهو يتحدث عن شعار **(لا إله إلا الله)**، ذلك الذي يستطيع – بإحسان التعامل معه – " نقل الجبال من مواضعها ".

الأسرع .. الأقوى .. الأعلى

ذلك هو شعار الأولمبياد المعروف في ألعاب الساحة والميدان ..

ولكنه الشعار نفسه – إذا أردنا الحق – في سباق الأمم والحضارات .. فالأمة التي تتحقق بالسرعة والقوّة والعلو ، هي التي تمسك بزمام الفعل الحضاري وتمضي به قدماً إلى الأمام.

والأمة التي تكسر الأرقام القياسية سرعة وقوة وارتفاعاً ، قد تمسك بزمام العالم ، كما يحدث اليوم بالنسبة للحضارة الغربية الغالبة وزعيمتها أمريكا ، وكما حدث زمن تألقنا الحضاري في القرون الثلاثة أو الأربعة الأولى من انبثاق الإسلام ، وكما يحدث للعديد من الحضارات البشرية ، بغض النظر عن نسيجها وخصائصها ..

والأمة التي تتباطأ سرعتها ، ويضعف عزمها ، وتكلّ قدرتها على الصعود ، تخرج من المضمار شاءت أم أبت ، وتنفى من التاريخ.

واليوم ونحن نواجه عنفوان العدوّ الصهيوني لابدّ أن نسترجع هذه المعادلة ونتحقق بها إذا أردنا فعلاً أن يكون لنا مكان بين الأمم ، وأن تكون لمجابهتنا العدوّ الشرس نتائج مؤكدة.

لقد أراد لنا هذا الدين أن نكون الأمة الأسرع في هذا العالم فوصف المؤمنين بأنهم **(يسارعون في الخيرات)** وأنهم **(لها سابقون)** ، والمسارعة والسبق مفردتان تحملان دلالتهما الواضحة على " السرعة " وناداهم بأعلى صوت : **{... فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ }** (المائدة ، ٤٨).

كما أراد لنا أن نكون الأمة الأقوى فنادانا : **{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ }** (الأنفال ، الآية ٦٠) ، وحدثنا في واقعة ذي القرنين كيف تكون القوة هي الحكم الفصل في حماية المستضعفين في الأرض من بطش الأقوياء ، وكيف أن على المؤمنين في هذا العالم أن يوظفوا النار والحديد والنحاس ، واليد العاملة القوية ، لإقامة السدّ الذي يحميهم من اقتحام الغزاة وإذلالهم : **{قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً }** (الكهف ، الآية ٩٤). ولم يرد القرآن الكريم بسرده هذه الواقعة أن تكون قصة تروى فيتسلّى بها السامعون ويزجون بها أوقات فراغهم .. لقد كانت تعليماً.

بل إننا نطالع في كتاب الله سورة كاملة سميت (سورة الحديد) ، وهو أمرٌ يحمل دلالته ، حيث ترد في آخرها هذه الآية الكريمة : **{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }** (الحديد ، الآية ٢٥).

ومعنى ذلك أن قدرة الجماعة المؤمنة على نصر الله (سبحانه وتعالى) وحماية الموروث الديني العظيم الذي حمل الأنبياء الكرام أمانته ، وأنيط بالأمة الخاتمة أن تحميه من التآكل والفناء ، لن يكون إلاّ باعتماد الحديد ، وعندما يذكر القرآن الكريم الحديد فإنه يعني بالضرورة كل خامات الأرض ومعادنها وقواها المذخورة.

وفضلاً عن هذا وذاك أراد لنا هذا الدين أن نكون " الأعلى " ليس من قبيل الاستعلاء العدواني الذي ينظر إلى الآخرين بازدراء ، ولكنه الاستعلاء الإيماني الذي يعرف كيف يتجاوز دنس العالم وشروره وينطوي على الثقة البالغة بالمصير ، ويتوق إلى إنقاذ البشرية من مستنقعات الصنمية والضيق وجور المذاهب والأديان .. يحرّرها بعبارة أخرى : **{ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ{١٣٧} هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ{١٣٨} وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{١٣٩}** (آل عمران ، الآيات ١٣٧-١٣٩).

وعبر القرون الثلاثة الأولى من ظهور الإسلام ، تمكنت الأمة الوليدة من التحقق بهذا كله .. فكانت الأسرع ، والأقوى ، والأعلى ، ولهذا وصفها كتاب الله بأنها : **{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ }** (آل عمران ، ١١٠) ، وقال عنها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم .. " ، ليس فقط لأنها كانت الأرقى سلوكاً ، والأطهر خلقاً ، والأشد عبادة ، بل لكونها فضلاً عن هذا كلّه ، قدرت على الالتحام بالكتلة واخترقت سرّ العالم ، وعرفت كيف تعيد صياغته من جديد في ضوء المقاصد العليا لمنهج الله وشرعه .. فكانت بذلك الأعلى والأسرع والأقوى ..

حول الأمن الفكري والأمن الغذائي

يتساءل المرء أحياناً : هل نحن بحاجة إلى الأمن الفكري والثقافي كحاجتنا إلى الأمن الغذائي ؟

وأغلب الظن أننا بحاجة إلى الاثنين معاً ، فليس من الضروري الخضوع لمبدأ " إما هذا أو ذاك " وإنما " هذا وذاك " .. فإن معدة خاوية تتلوى من الجوع لا يستطيع صاحبها أن يخط كلمة واحدة ، فضلاً عن أن يصوغ فكرة أو يستكشف حقيقة .. وإن أمرأً متخماً لا يحظى بحرية التفكير والقول ، سيتحول – بمرور الوقت – إلى خانة السوائم والعجماوات أو الشياطين الخرس الذين اعتادوا السكوت عن الحق.

ومنذ البدايات المبكرة لتشكل تاريخنا ، منذ عصر الرسالة ، سعى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جاهداً لتحقيق الأمن الغذائي والفكري معاً لصحابته الكرام ، ولقد كانت تجربة " المؤاخاة " في أساسها محاولة لتحقيق الأمن الغذائي – والمعيشي عموماً – وإعانة المهاجرين الذين خلّفوا الأموال والديار وجاءوا إلى المدينة لكي يقيموا الدولة الموعودة ويصوغوا التاريخ وهم لا يملكون شيئاً .. حتى إذا تحقق لهم ذلك – بدرجة أو أخرى – أوقفت التجربة بزوال مبرّراتها ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبحث وينفذ تجارب وصيغاً أخرى لتحقيق الهدف ذاته.

روى ابن سعد في (الطبقات) أن عدداً من أبناء القبائل قدموا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في أعقاب فتح خيبر فكلم فيهم أصحابه أن يشركوهم في الغنيمة ففعلوا. وروى الواقدي في (المغازي) أن المسلمين لما فتحوا حصون خيبر وجدوا هناك متاعاً وسلاحاً وأثاثاً كثيراً " فأما الطعام والأدم والعلف فلم يخمس ، يأخذ منه الناس حاجتهم ". كما يروي أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) نادى خلال حصار الطائف أن أي عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر ، فخرج إليه بضعة عشر رجلاً فأعتقهم وسلّم كل رجلٍ منهم إلى رجل من المسلمين يموّنه ويحمله. ويروي أيضاً أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) استقرض في أعقاب فتح مكة مبلغ ثلاثين ومائة ألف درهم من عدد من سكان مكة وقسمها بين أصحابه من أهل الضعف. ويروي البلاذري في (الأنساب) أن يهود فدك صالحوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على نصف الأرض ، فكان يصرف ما يأتيه منها على أبناء السبيل. وأن رجلاً من بلقين قال : أتيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو بوادي القرى فقلت : يا رسول الله لمن المغنم ؟ قال : لله سهم ولهؤلاء أربعة أسهم. قلت : فهل أحد أحق بالمغنم من أحد ؟ قال : لا. حتى السهم يأخذه أحدكم من جنبه فليس أحق به من أحد.

عن أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : إنما هي – فدك – طعمة أطعمنيها الله حياتي فإذا مت فهي بين المسلمين.

وقال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : كان للرسول صلى الله عليه وسلم ثلاث صفايا ، فكانت بنو النضير حبساً لنوائبه ، وكانت فدك لابن السبيل ، وكانت خيبر قد جزأها ثلاثة أجزاء : فجزآن للمهاجرين ، وجزء كان ينفق منه على أهله ، فإن فضل ردّ على فقراء المهاجرين.

وليس هذا التأكيد في التوزيع على المهاجرين سوى محاولة من الرسول صلى الله عليه وسلم لإعادة التوازن الاجتماعي بينهم وبين الأنصار ، هذه المحاولة التي بدأت بمؤاخاتهم مع الأنصار ثم تطوّرت بمنحهم مزيداً من فرص الحصول على المال لكي يبلغوا مرحلة الكفاية ويتمكنوا من مواصلة نشاطهم الاجتماعي. وليست مسألة توزيع أموال بني النضير الكثيرة على فقراء المهاجرين ، وحجبها إلاّ عن قلة من الأنصار سوى استمرار على ذات الطريق.

وقد قدّم القرآن الكريم من خلال هذه التجربة بالذات موقفه الحاسم ازاء التوازن الاجتماعي والأمن الغذائي عندما قال : **{... كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }**(الحشر، الآية ٧).

وكان الصحابة في عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يأتي كل واحد منهم من أصحاب النخيل بالعذق عند جذاذه ثم يعلّقه على باب المسجد يأكل منه من يشاء. وعن ابن عمر قال : لقد أتى علينا زمان وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم. وعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو ، أو قلّ طعام عيالهم بالمدينة ، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ، ثم اقتسموه بينهم بالسويّة فهم مني وأنا منهم ".

وأظن أن هذا يكفي .. فأما الأمن الفكري والثقافي فيكفي أن نذكر كيف أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يستشير أصحابه في كثير من الأمور وكيف أنه تعمّد أن يربيهم على " الشورية " وحرية الرأي في مواجهة المواقف الصعبة .. والوقائع كثيرة ، تملأ صفحات عصر الرسالة .. وقد لا ندهش إذا رأينا آيات الله البيّنات تتنزل بين الحين والآخر لكي تؤكد رأي هذا الصحابي أو ذاك أو تقرّه ، فتعمّق في العقول والنفوس المؤمنة مبدأ المشاركة وحريّة القول .. وقيم الأمن الفكري في نهاية الأمر.

ولم يقف الأمر عند حدود تعامل المسلم مع المسلم ، أو النبي القائد مع أصحابه ، وإنما مضى لكي ينسج التقاليد نفسها مع الآخرين. وقد تكفي إشارة واحدة هنا تغني عن مثيلاتها : فإن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عندما فتح خيبر ، بعد مقاومة عنيفة جاوزت العشرين يوماً ، تلقى ضمن الغنائم صندوقاً يحتوي على ملفّات من العهد القديم (التوراة). وتوقع رجالات اليهود أنه سيأمر بحرقها لأنها تعبر عن فكر الخصم ، فما كان منه إلا أن أمر أصحابه بحمايتها من التلف ، وإعادتها إلى الأحبار كاملة غير منقوصة. ويقول الباحث اليهودي (إسرائيل ولفنسون)

في كتابه (تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام) أن اليهود ظلوا على مدار القرون يشيرون بالبنان إلى هذا الفعل النبيل من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ..

الجائزة الكبرى

{ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ } (الحشر ، الآية ٢٠).

هذه واحدة من المعادلات القرآنية التي تتيح للمسلم المزيد من الاطمئنان إلى المصير ، وبالتالي من اجتياز رحلة الحياة الدنيا بعيداً عن المخاوف والأحزان .. من التحرّر منها بعبارة أدقّ ..

ولكن الفوز العظيم هذا لن يتم بدون ثمن كبير يكافئه .. لقد كتب على المسلم الذي اختار دخول المسابقة الكبرى أن يكون عدّاءً من طراز أوّل .. أن يسارع في الخيرات وأن يسبق إليها ..

هذا هو قدرنا نحن أبناء هذا الدين .. أن يساهم كل واحد منا ، وبما يسره الله له ، في صناعة الحياة الإسلامية ، حلقة من حلقاتها أو جزئية من جزئياتها .. أن يغذي رافداً من روافدها التي قد تبدو للوهلة الأولى صغيرة منحسرة ، لكنها عندما تلتقي وتتجمع وتصب في بحر الدعوة الكبير ، يمكن أن تغيّر الخرائط وتعد بالكثير.

وليس مهماً بعد هذا أن تقطف الثمار هنا في الحياة الدنيا أو هناك في الحياة الأخرى .. بل إنها هناك أدعى إلى بذل المزيد من الجهد لأنها تقترن بالخلود ، بينما هي هنا سريعة منصرمة كانصرام الحياة الدنيا نفسها ..

إن القرآن الكريم يخاطب الرسول (صلى الله عليه وسلم) نفسه بهذا المعنى ، كي لا يستعجل القطاف ، وكي لا يجعل من الجزاء في الحياة الدنيا خاتمة المطاف : **{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ }**(غافر، الآية ٧٧).

إننا بانتمائنا إلى خيمة الله ، وإمساكنا بحبله المتين ، قبالة كل خيام الآخرين الممزقة ، وحبالهم المقطوعة ، يجب أن نكون أسعد خلق الله وأكثرهم فرحاً وتوحّداً واطمئناناً وائتماناً ذاتياً.

فما الذي يخيفنا أو يحزننا ونحن نجتاز رحلة موقوتة لا تتجاوز ، بتعبير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الجلوس للحظات تحت ظل شجرة في الصحراء القائضة ، ثم تركها والمضي بعيداً ؟ رحلة يصفها القرآن الكريم بحفل تعارف لا يكاد أحد يتعرف فيه جيداً على أصحابه ، بل على أسمائهم ، ثم ما يلبث أن يغيب عنهم ويغيبون عنه ، فيطويه ، ويطويهم النسيان ..

ما الذي يخيفنا أو يحزننا ونحن موعودون ، إن عرفنا كيف نتعامل مع طرفي المعادلة ، بالفوز العظيم ؟

بعد هذا كلّه ألا يحق لنا أن نغبط كل أولئك الذين نذروا حياتهم ووجودهم لله .. أو وظّفوا – في الأقل – بعض حلقاتها لإعلاء كلمته في الأرض ؟

ثم ألاّ يحق لنا – في المقابل – أن نرثي لكل أولئك الذين استهواهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، ومنعهم من أن يعطوا شيئاً ممّا منحهم الله إياه .. لمطالب هذا الدين ؟

وتظل الجائزة الكبرى تنتظر أولئك الذين أدركوا مغزى الحياة وهدف المسعى البشري في العالم فاستحقوها ، ليس بعطائهم السخّي فحسب ، بل بذكائهم أيضاً : **{ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ{١٠١} لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ{١٠٢}}**(الأنبياء ، الآيات ١٠١–١٠٢).

التحقّق بالقوة .. ذلك هو الطريق

طالما مررنا بواقعة (ذي القرنين) ونحن نقرأ كتاب الله ، ربما كقصّة تثير الإعجاب وتمنح عبرة هنا ومغزى هناك. ولكن المغزى الأهم والأخطر على ما يبدو ينطوي على تأكيد واضح بخصوص التحقق بالقوة لحماية المستضعفين وتعزيز قيم الحق والعدل في العالم.

عندما طلب المضطهدون من ذي القرنين أن يحميهم من طغيان الأقوى قال لهم : **{ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً }**(الكهف ، ٩٥) : البدء من الله سبحانه لأن الذي سيعقب هذا سيكون بأمر من الله (سبحانه وتعالى) ، بتوجيه منه ، وسوف يقود إلى الخير متمثلاً بحماية المستضعفين في الأرض من الفئة الباغية ..

ويتحتم أن تكون المعاونة (بقوة) من أجل إنجاز الردم الذي هو عمل عمراني وعسكري في الوقت نفسه .. إنه يشترط القوة البشرية لتحقيق الهدف قبالة الأقوى والأكثر قدرة على اكتساح الخصم. ثم يمضي الرجل المؤمن فيقول : **{آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ... }** (الكهف ، الآية ٩٦) هذا الخام الذي عرفت الأمم المتقدمة في العصر الحديث كيف توظفه فتمسك بزمام التاريخ .. **{آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً }** : النحاس السائل ، هذا هو المعدن الآخر الذي اعتمده ذو القرنين مع خامة الحديد، مذاباً بقوة النار ، لكي يبني سداّ يملك مواصفاته المطلوبة في الكم والنوع .. ارتفاعاً ، وقدرة على المقاومة .. كيف : **{ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ ... }** (الكهف ، الآية ٩٧) أي يتجاوزونه ارتفاعاً **{ ... وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً }** أي يخترقون سمكه المتين.

إنها لإشارة واضحة إلى أن أمتنا المستضعفة في هذا العالم لن تقدر على حماية وجودها ومقدّراتها إلاّ أن تبني بينها وبين القوى الغالبة التي تتداعى عليها كما تتداعى الأكلة على قصعتها سدّاً من القوة بالحديد .. بالطاقة الحرارية .. باليد العاملة القوّية .. بالنحاس المذاب .. وبالسدود الصناعية التي مكنت ذا القرنين من حماية المستضعفين في الأرض ، وهي قديرة – بالخطاب القرآني نفسه – أن تحمينا في القرن الحادي والعشرين وفي القرن الخامس والعشرين.

ثم ألم تلفت أنظارنا سورة كاملة سميت باسم (سورة الحديد) ؟! ما الذي يعني أن تسمى سورة كاملة باسم هذا الخام ، وترفع في مقاطعها الأخيرة هذا النداء الواضح في دلالته التطبيقية، وفي أنه ليس ثمة حماية للقيم الإيمانية في هذا العالم دون إسناد من قوة الحديد ، وخامات الأرض عموماً ، وتطبيقاتها التكنولوجية التي توظف لهذه المهمة الجليلة ؟ **{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }** (الحديد ، الآية ٢٥).

ها نحن قبالة صفين من المفردات يحملان الدلالة الواضحة على ما نحن بصدده. الصف الأول : الحديد ، البأس ، القوة ، والعزة .. الصف الثاني : البينات ، الكتاب ، الميزان ، والقسط..

والمحصلة النهائية من تقابل الصفين أن رسل الله (عليهم السلام) ودعواتهم جميعاً لن تقدر على تحقيق العدل الذي جاءت به إلى هذا العالم ، العدل العقدي بتوحيد الله سبحانه ، والعدل الاجتماعي بالمساواة بين الناس ، ما لم توظف الحديد ، وخامات الأرض كافة ، لتأكيده وحمايته من العدوان.

وثمة تقابل آخر بين البأس والمنفعة .. بين توظيف خامات الأرض للأغراض السلمية ، وبين اعتمادها للأغراض العسكرية ، أي لتكنولوجيا التسليح .. وليس ثمة خلاص لهذه الأمة من المأزق الذي تختنق فيه إن لم ترجع إلى هذه الآية التي تتوجه بالخطاب الحاسم للمسلمين .. إلى السورة التي تحمل اسم الحديد ، والتي تريد أن تقول لنا بأنه ليس ثمة نصر للميزان .. للكتاب الإلهي .. للوحي .. للرسل .. لقيم الغيب القادمة من السماء .. إلا بالحديد.

والآن ، وقد أصبحنا كتلك الجماعة المضطهدة التي حدثنا عنها كتاب الله ، لن يكون بمقدورنا حماية أنفسنا من المزيد من العدوان والمزيد من التراجع الحضاري إن لم نتلق الإشارة من كتاب الله ، ونعرف كيف نتعامل مع كنوز الأرض المسخرة وسننها ونواميسها.

في ضرورات الفقه الحضاري

الفقه الحضاري في معطياتنا الفكرية هو الحلقة الأضعف قبالة حلقتي الفقه الشرعي والفقه الدعوي.

لابدّ من هذه الحلقة لإيجاد جسر إلى العالم وإيصال مقاصد الشريعة العليا بآليات الدعوة إلى مسمع العالم وعقله ووجدانه.

لنعترف بأننا لم نحدّد لحدّ الآن المفاهيم والمصطلحات الخاصة بالحضارة والمدنية والثقافة، وبأن حضارتنا الإسلامية تعاني من الشلل وغياب الفاعلية ، ولكنها من بين سائر الحضارات المندثرة قديرة على النهوض مرتين وثلاثاً وعشرين مرة في قرن عشرين أو ثلاثين ، لأن الشروط التي أتاحت لها التكون والصيرورة أوّل مرة ستظل قائمة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم اللذين يحملان مصداقيتهما المطلقة.

وكذلك فإن الحالة الاجتماعية للمجتمعات الإسلامية على انكساراتها ، وانهياراتها الحضارية، تمثل أكثر الحالات في تاريخ البشرية طهراً ونظافة واستقامة والتزاماً بمنظومة القيم الخلقية ، ومقاربة للوضع البشري في العالم كما أراد الله (سبحانه وتعالى) له أن يكون .. فكيف لو تنفّست هذه الحالة في ظلال حضارة الإسلام نفسه ؟!

إن الذين يجيئون من خارج دائرة الإسلام – للأسف – أقدر على معاينة خصائص الحضارة الإسلامية وعناصر تفوّقها ، من المسلمين أنفسهم ، وهم الذين أكدوا على أن بصمات الإسلام ونسغه يمضيان لكي يطبعا كل خلية من خلايا هذه الحضارة ويغطيا كل صغيرة أو كبيرة.

نحن لا نستطيع أن نتقدم إلى العالم بالحلقة التي يتفوق فيها كالتكنولوجيا والخدمات ، ولكن بمبدأ كبير متميز يخترق العقل الغربي الباحث عن الخلاص ويمنحه الجواب على الأسئلة الكونية الكبرى التي تؤرقه ، إنه مبدأ التوحيد المحرّر من كل الصنميات والطاغوتيات والحتميات التاريخية والمادية التي أذلّت الإنسان الغربي طويلاً ..

إن الفقه الحضاري يستدعي دراسة علمية منهجية متأنية لتاريخنا الحضاري لاستمداد مؤشرات العمل في الحاضر والمستقبل ، ولاستخلاص البدائل التي يمكن أن نتقدم بها إلى العالم في مشروع حضاري يشارك في صياغة مستقبل البشرية والتخطيط للمصير.

إن حضارتنا تمنحنا صورة عن مصداقية تحوّل الشريعة وخلفياتها الاعتقادية والتصورية إلى واقع تاريخي متحقق في الزمن والمكان ، وتلك هي أهمية البحث فيها ومبرّراتها الضرورية ..

إنه ليس بالإنشائيات والخطابيات ولكن بالعلم والمنهج يمكن أن نستمد من البحث في الحضارة الإسلامية ملامح الطريق ..

إن الغربيين ، مفكرين وفلاسفة وأدباء وعلماء ، يرفضون الجنوح المادي لحضارة الغرب .. يتمرّدون على الطرق المسدودة ، لكنهم لا يكادون يعرفون شيئاً عن طريق الخلاص في صيغته الإسلامية ، لذا هم يتخبطون .. وعلينا نحن أن نشمّر عن ساعد الجدّ لملء الفراغ الملح هذا بفقهنا الحضاري ..

لابدّ من معالجة الحضارة الإسلامية بعيداً عن التجزيئي والتفتيت ، واعتماد المعايير العتيقة في تقسيم العلوم إلى عقلية ونقلية .. من أجل الإمساك جيداً بالقوى الفاعلة التي أسست لحضارة الإسلام ، وتناميها .. وتلك التي قادتها إلى التيبس والشلل ، وأن نرفض التفسير الميكانيكي الذي يرتطم منهجياً بصيرورة هذه الحضارة.

ولابدّ من توجيه أبنائنا إلى تلقي الفقه الحضاري جنباً إلى جنب ، أو بموازاة الفقه الشرعي والفقه الدعوي .. وأن نحرّرهم من العلوم العتيقة كالمنطق وعلم الكلام لكي نضعهم في قلب العصر ..

عبارة النفّري المتصوف : " يا عبد ، إذا قمت إلى الصلاة فأجعل الدنيا كلّها تحت قدميك تصحّ على المستوى الفردي ، أما المستوى الحضاري فإن المطلوب لن يتحقق إلاّ بعد أن نملك الدنيا ، ونكشف النقاب عن طاقاتها المسخّرة ونتملكها .. لأننا لا نستطيع أن نضع تحت أقدامنا شيئاً لا نملكه !

إن التحرر من الضرورات والاستعلاء عليها لن يتحقق إلاّ بفعل حضاري يكشف عنها ويسخّرها ثم يتحرّر منها ..

بدأ انهيارنا الحضاري عندما راح أجدادنا يقلّدون بدلاً من أن يبدعوا .. وعندما هيمنت الروح الإرجائية التي فكت الارتباط بين الإيمان ومقتضياته العملية المؤكدة .. وعندما ساد الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي .. وعندما لم يلتفت الآباء والأجداد عبر القرون المتأخرة إلى نداءات القرآن الكريم في ضرورة التحقق بالقوة .. إلى سورة الحديد .. ومغزى واقعة ذي القرنين .. وآية الإعداد ..

الغربيون يتفوقون علينا بقدراتهم المادية وكشوفهم العلمية وخدماتهم المدهشة ، وفيما عدا هذا فهو العفن والتفكك والفساد والانحلال والسلوك الذي يميل صوب الحيوانية ، ويهرب بالحشيش والخمر والأفيون والانتحار .. وحيث ترتفع معدلات الجريمة والاغتصاب والشذوذ وخراب الأسر .. وتجد فيها المؤسسات التشريعية نفسها مسوقة للتصويت على إباحة الشذوذ الجنسي ، والكنيسة إلى توجيه دعوة للشواذ بعقد زيجاتهم في باحاتها وتحت بركاتها !!

القرآن الكريم ومفاتيح العمل

يتساءل الكثيرون : هل إن تراكم التجارب التي مرّت بها الأمة الإسلامية على جميع الأصعدة بلغت الحدّ الذي يؤهلها لتلمس طريق الحضارة والتطلّع للريادة ؟

والجواب أنه على المدى القريب ليس ثمة ما يوحى بذلك .. ولكن – ربما – على المديات البعيدة قد تبلغ الأمة المرحلة التي تؤهلها لذلك عندما تستكمل الشروط التي تجعلها قديرة على تقديم المشروع الحضاري البديل. ولكن ذلك لن يكون قبل أن تتقدم بهذا المشروع لذات نفسها أولاً فتتحقق به في وتائره العليا الممكنة ، ومن ثم تقنع الآخر بمصداقيته ، وهذا بدوره لن يكون ما لم تع الأمة جيداً قوانين الحركة التاريخية وسنن الله (سبحانه وتعالى) في الكون والعالم ، تلك التي أنبأ بها كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم).

ولكننا عبر عصور التخلّف والانحطاط ، لم نحسن التعامل معها ، وفي مقدمتها – ولا ريب – دعوة القرآن المؤكدة للالتحام بالكتلة ، واختراق قشرة العالم لاستخراج طاقاته المذخورة وتسخيرها لتعزيز مكانة الأمة في العالم وحماية مقدّراتها الإيمانية ازاء كل أنماط التحدّيات.

يكفي ان نرجع إلى الآية الخامسة والعشرين من سورة الحديد والتي تقول : **{... وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }** (الحديد ، الآية ٢٥) .. يكفي أن نرجع إلى واقعة ذي القرنين الذي طلب منه المستضعفون في الأرض أن يحميهم من الأقوى وكيف أنه ما قال لهم : تعالوا نصلّي ونصوم وندعو الله سبحانه كي ينصرنا على الأعداء ، وإنما قال : **{ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً }**(الكهف ، ٩٥) .. واعتمد كل حيثيات العمل الجاد والقوى المنظورة من حديد ونار ونحاس سائل ، لإقامة السدّ المحكم الذي يحمي المستضعفين .. يكفي أن نتذكر مبدأي الاستخلاف والتسخير الإسلاميين اللذين لن يتحولا إلى حيزّ التنفيذ ما لم يقتحم المسلم الكتلة ويكشف أسرارها ونواميسها.

يكفي أن نتذكر هذا كلّه لكي نعرف أن تحقيق الذات لن يتم بالتزام جانب دون جانب في البنية العقدية ، وأن لابدّ من التعامل مع المنطوق الإسلامي في حلقاته كافة ، وحينذاك يمكن أن نضع خطواتنا في البداية الصحيحة التي أرادها لنا الله ورسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام) ، وأن نحصّن أنفسنا ونتقدم في الوقت نفسه بمشروعنا للعالم قبالة كل المشاريع الوضعية التي أثبتت عجزها وتهافتها وعدم قدرتها على مواصلة البقاء.

إن القرآن الكريم يمنحنا في سوره ومقاطعه وآياته البينات ، بل حتى في أسماء سوره الموقوفة من لدن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، مفاتيح عمل .. يعطينا إشارات .. شفرات

.. يمكن إذا أحسنّا الإنصات إليها ، وتنفيذها ، أن نضع خطواتنا على البداية الصحيحة التي انحرفنا عنها عبر قرون التخلف والجمود الحضاري .. فضعنا ..

إننا لنتذكر ها هنا أسماء ثلاث سور من كتاب الله تحمل إحداها اسم (القلم) والأخرى (الشورى) والثالثة التي سبقت الإشارة إليها اسم (الحديد) ..

والمعادلات الموضوعية لهذه العناوين الثلاثة هي : المعرفة ، الحرية والقوة .. فلو أننا استطعنا أن نجعل حياتنا تتحقّق بأطراف هذا المثلث ، لما كنا قد انحدرنا إلى الحال التي نعاني منها منذ أكثر من قرنين قبالة الغربي المتفوّق بمعرفته وقوّته وحرّيته ..

ولكن ؟!

الليكود .. أعلى مراحل الصهيونية

ما في هذا شك على الإطلاق.

فإذا كانت إسرائيل ، والدعاوى الصهيونية ، هي تأسيس إرهابي يستهدف اعتماد القوة المجرّدة عن منظومة القيم الدينية والخلقية والإنسانية ، لتدمير الخصم وسرقة حقّه في الوطن والحياة .. فإن " الليكود " يمثل أعلى حالات هذا التأسيس ، باعتماده الأسلوب نفسه في أشدّ وتائره فظاعة وقسوة ولا إنسانية !

و" شارون " ليس حالة طارئة ، أو استثنائية .. وإنما هو انعكاس أمين للفلسفة التي تبني عليها الصهيونية ادعاءاتها وأساليبها في العمل.

يؤكد هذا أن الإسرائيليين في معظمهم اتجهوا إليه ، مانحين إياه أصواتهم وثقتهم لمجابهة الموقف الصعب إزاء الانتفاضة الفلسطينية الكبيرة ، مؤملين أن يتمكن من سحقها ، كما أكد هو في شعاراته وبياناته الانتخابية ، بما في ذلك دعوى القضاء على الانتفاضة في مدّة لا تتجاوز المائة يوم فحسب !!

وحتى حزب العمل " المعارض " نفسه .. حزب العمل الذي كان يعلن – دائماً – في برامجه وثوابته الحزبية ، اعتماد أسلوب الحوار السلمي مع الفلسطينيين ، وتوظيف الجهد السياسي للوصول إلى حلّ يرضي الطرفين .. حتى هذا الحزب ، فاء في لحظات المصير ، إلى أحضان الليكود ، وجلس " شيمون بيريز " أحد رموز الكلاسيكية الإسرائيلية ، باستخذاء وتوسل ، وربما بدهشة وإعجاب ، بين يدي " شارون " يصغي إليه ، ويتفرّس في وجهه ، كما يفعل التلامذة الصغار أمام معلميهم الكبار ..

وهذا هو الآخر أمر طبيعي تماماً ، ينسجم مع مطالب اللحظة التاريخية التي تمرّ بها إسرائيل والتي تتطلب ، كما تطلّبت زمن تأسيسها ، اعتماد أقصى صيغ الإرهاب والقمع لسحق الخصم وتأكيد وجودها بالتالي ، هناك حيث يستوي الحزبان الديني والعلماني في مجابهة التحدّيات.

إن ما يجري منذ عام ونصف في الساحة الفلسطينية لقمع الانتفاضة الكبرى .. وما شهدته صبرا وشاتيلا في بداية الثمانينات على يد " شارون " نفسه .. وما جرى في دير ياسين في أواخر الأربعينات .. حلقات في مسلسل واحد ينبض بالدموية .. والقتل .. والإرهاب ..

وما بين حلقة وأخرى ظل الحال هو الحال .. تنخفض وتيرته بعض الشيء لدى تسلّم حزب العمل مقاليد الأمور ، وترتفع صوب حدودها القصوى عندما يجيء الليكود.

وفي كل الأحوال ، فإن " الأكثرية " من بني إسرائيل هي التي تأتي بهؤلاء وهؤلاء .. وعندما يتربّع الليكود على سدّة السلطة ويمارس أسلوبه الدموي تجاه الفلسطينيين ، فمعنى هذا أن بني إسرائيل هم الذين يريدون هذا الأسلوب ويتشبثون به.

وعندما يعلن " شارون " ، المرة تلو المرة ، بعقليته الإرهابية ، بأن أفضل وسيلة لإرغام الفلسطينيين على الخضوع هو تنفيذ المزيد من المذابح فيهم ، فمعنى هذا أن الأكثرية من بني إسرائيل هي التي تريد هذا.

وفي كل الأحوال – كذلك – يبقى الليكود ، رغم الهدف الواحد الذي يحرك الحزبين معاً ، وسيلة إيضاح أكثر انكشافاً وتعبيراً عن الوجه الصهيوني البشع الذي يستمد نسغه من معطيات التلمود العدوانية ، فيرى في الأمميين قطعاناً نذرت لبني إسرائيل كي يسفكوا دماءها ويسخروها لأهدافهم الملتوية ، غير المشروعة ، وغير الإنسانية ، والتي لا ترتبط – ابتداءً – بأي ضابط خلقي أو جذر ديني أصيل على الإطلاق.

المسيحية والاختراق اليهودي

منذ منتصف القرن الماضي ومحاولات اليهود لاختراق المسيحية قائمة على قدم وساق.

كانوا قد اخترقوها ديناً منذ بدايات مبكرة .. بل منذ انتمى إليها القدّيس بولس " اليهودي " الذي كان يعذّب المسيحيين ويضطهدهم ، ونقل إليها الكثير من المعطيات اليهودية واليونانية فانحرف بها عن جوهرها الأصيل ، وقادها إلى الشرك والوثنية ، وحوّل الإنجيل إلى صفحات مترعة بالفضائح ، والمخازي ، وزنا المحارم ، والشذوذ يمارسه حتى أنبياء بني إسرائيل!

ولكن ظلّت المؤسسات الكنسية مستعصية عليهم ، حتى أتيح لهم في ستينات القرن الماضي ، اختراق البابوية والحصول على وثيقة تبرئة اليهود من دم السيد المسيح (عليه السلام)!

بعدها أخذ الفتق يزداد اتساعاً ، وتموضع عدد من كبار الحاخامات اليهود في قلب الفاتيكان ، تغطيهم الأردية الكهنوتية المسيحية السوداء ، بشاراتها الأرجوانية ، وطرحاتها ذوات البريق !

وكثرت تصريحات البابوية لصالح اليهود .. والصهاينة .. ودولتهم المغتصبة في فلسطين ، وادعاءاتهم التاريخية الكاذبة ..

وما لبثت البروتستانتية أن تلقّت الاختراق نفسه ، بعنف أكبر هذه المرة .. ربما بسبب من الدور المحموم للوبي اليهودي في الساحة التي يكثر فيها البروتستانت.

ومع البروتستانت سحبت الكاثوليكية إلى المحرقة الدينية نفسها .. فظهر في الساحة الأمريكية ما سماه البعض باليهودية الإنجيلية ، وما يمكن تسميته بالنصرانية المتصهينة أو الصهيونية المتنصرة !

والأمر سواء .. ما دام الهدف هو توظيف المسيحيين في الساحة الأمريكية وتحويلهم إلى أدوات لخدمة الأهداف الصهيونية ، تماماً كما حدث – قبل ذلك – في الساحة الأوربية.

وشيئاً فشيئاً أخذ التيار يزداد اتساعاً ، والصوت الذي بدأ على استحياء يزداد ضراوة وعنفاً..

ثم ما لبث أن انتمى إلى " الأكذوبة الكبيرة " رجالات من ذوي المكانة القيادية المتقدّمة في الماكنة الأمريكية ، وصولاً إلى رؤساء الجمهورية أنفسهم .. وصرنا نسمع عن محاضرات يلقيها " كارتر " وندوات يعقدها " ريغان " وكتب يؤلفها " نيكسون " تؤكد العلاقة الحميمة بين اليهودية والنصرانية ، بل بين هذه وادعاءات الصهاينة التي سماها المفكر الفرنسي المعروف " غارودي " بالأساطير !

وراحت المعطيات المترعة بالكذب والتزوير الديني والتاريخي معاً تتدفق على ألسنة هؤلاء ، وغيرهم كثيرون ، ومن أقلامهم .. متجهة حيناً إلى العمق الزمني البعيد لتأكيد الأكذوبة ، ماضية حيناً آخر صوب المستقبل للحديث عن " الوعد " الكاذب الذي ستشهده " هرمجدون " في الساحة الفلسطينية والذي سيقدّر فيه لليهود وإسرائيل الانتصار النهائي على خصومهم. وحيث لن يرجع المسيح ثانية إلاّ بوجود الدولة العبرية !!

لمصلحة من هذا الانسياق المخزي وراء الادعاءات اليهودية التي لا يسندها برهان أو دليل من دين أو تاريخ ؟

وإذا كان الكثيرون من رؤساء الولايات المتحدة يضعون أنفسهم في أحضان اللوبي اليهودي، والصهيونية وإسرائيل ، بحثاً عن ضمانات الفوز في الجولة الثانية من انتخابات الرئاسة ، فما لهؤلاء الذين غادروا البيت الأبيض إلى الأبد يمارسون اللعبة نفسها ؟

ولمصلحة من ؟!

صنفان .. في ديارنا

في مدن العالمين الإسلامي والعربي .. في شوارعهما ومدارسهما وجامعاتهما ومؤسساتهما ودورهما وأسواقهما .. بل حتى في جوامعهما ومساجدهما .. ثمة نمطان من الناس .. نمط التصق بمطالب الحياة الدنيا واغراءات الإشباع الحسيّ ، والبحث عن ضمانات الحياة والاستمرار والتكاثر بالأشياء .. نمط فقد حسّه الديني ، وغيرته ، بل نبضه الإنساني وخصائصه البشرية المتميزة ، وأصبح يحيا كالعجماوات يأكل ويشرب ويتكاثر وينام .. فلم تعد تؤرقه هموم الأمة ، ولم تعد تخز جملته العصبية مذبحة ينفذّها أولاد الأفاعي في فلسطين ، أو قنبلة تزن سبعة أطنان تلقيها طائرة أمريكية على هذا الموقع أو ذاك من ديار المسلمين.

لم يعد يكترث على الإطلاق لما تشهده الأمة عبر الأشهر الأخيرة ، حيث جاوزت الآلام والأحزان حدودها القصوى صوب حالة أسطورية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً .. أصابت بالهمّ والغمّ والحزن ، نمطاً آخر من الناس لم يعد يستمرئ طعاماً ولا نوماً ، وهو يرى ويسمع ، ساعة بعد ساعة ، ودقيقة بعد أخرى ، إخوانه في ديار الإسلام ، يقتلون ويصلّبون ، ويتعرّضون لإبادة جماعية ما شهدتها حتى عصور هولاكو وجنكيزخان ..

إن المرء ليراهم ويلحظهم جيداً .. الوجوه المتجعّدة من الحزن .. النفوس المكتئبة المتغضّنة من الألم .. والعيون المنتفخة التي لم تحظ بساعة واحدة من النوم ..

وهم جميعاً يقولون بالحرف الواحد : هذا زمن ليس كالأزمان .. إنها أسوء مرحلة تمرّ بها الأمة ، وأكثرها عتمة وإظلاماً .. فمن يستطيع أن يأكل أو ينام ؟ وأين هو الفرح ، والدم المسلم ينزف بغزارة موجعة في كل مكان ؟!

إنهم التلامذة الأبرار للرسول المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) ، الذي قال يوماً : " المسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " .. المرآة الصادقة لتحذير نبي طالما أكد على مفهوم المشاركة الجماعية في السرّاء والضرّاء ، لأمة أريد لها أن تكون الأمة الوسط التي تحمل أمانة الهداية ، والبلاغ .. بل إنه صلى الله عليه وسلم أعلن بوضوح بأن " من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم " .. هكذا ، وبهذا الحسم الذي ينفي عن جسد الأمة كل من لا ينبض قلبه بنبضها ، ولا ينتفض إحساسه لأحزانها وأوجاعها.

ومن عجب أن المرء يلتقي كثيراً بأناس يصلّون ويصومون ، وقد لا تفوتهم في الجوامع صلاة .. ومع ذلك ، لم تصل إليهم – بعد – وخزة الألم .. إن الفاصل بين جملتهم العصبية ، وبين ما يجري في العالم ، واسع غليظ يحميهم من التأثر والمشاركة والمواساة والانفعال .. فلا حول ولا قوّة إلاّ بالله ..

ولكن ما يعزّي الإنسان في زمن الشدّة هذا ، أنه لا يزال يلتقي بالكثيرين من أبناء الأمة .. ممن يشربون حتى الثمالة آلامها وأوجاعها ، فيتألمون ويتوجعّون .. ولكن هل هذا وحده يكفي ؟

إنه الجانب السلبي من الموقف ، وهم مأجورون عليه إن شاء الله ، وهو على أية حال يعكس تعاملاً سليماً مع الظاهرة ، لكن يظل هناك الجانب الإيجابي الذي ينتظر منهم أن يتحركوا .. أن يفعلوا شيئاً .. أن يقدّموا عطاءً بهذه الصيغة أو تلك .. أن يقولوا كلمة في مواجهة الطاغوت الذي يحكم قبضته على رقبة الأمة .. أو – على الأقل – أن يستنكروا هذا الذي يتشكل أمام أعينهم ..

صنفان من الناس أفرزتهم المحنة القاسية : الشرفاء الغيورون .. وأولئك الذين فقدوا الغيرة والشرف ..

الاستشهاديون الفلسطينيون الذين يرمون بأنفسهم إلى الموت ، دفاعاً عن العقيدة والأرض والعرض ..

وأربعة عشر ألف مصري ذهبوا إلى إسرائيل وتزوّجوا بيهوديات من أجل الحصول على الجنسية الإسرائيلية ، وما تعنيه من فرص وميزات ..

فلا حول ولا قوة إلاّ بالله ..

إنما هو وعد الله !

عندما نتحدث عن قدرة الإسلام والأمة الإسلامية على ممارسة " عولمة مضادة " .. على مشاركة فاعلة في مصير البشرية والعالم .. على انبعاث إسلامي .. على مشروع حضاري بديل .. على وعد بخلاص العالم من المأزق الذي وضعه فيه الطواغيت والأرباب .. على تحرير الإنسان من عبادة العباد .. على الخروج بالمجتمعات من ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان والمذاهب والنظم إلى عدل الإسلام.

فإن هذا كلّه ليس كلاماً يقال ، أو أماني تزجى .. أو حلماً نقنع به أنفسنا في زمن الضيق والشدّة والهزائم والانكسارات .. أو محاولة للهروب من الواقع المبهظ بتخيل عالم سعيد لا ظالم فيه ولا مظلوم ..

وإنما هو وعد الله (سبحانه وتعالى)!

ولن نكون مسلمين ، إن على مستوى التصديق بالوعد ، أو في سياق وظيفتنا الكبرى في هذا العالم .. إن شككنا لحظة واحدة بصدق الوعد ..

ولكنها – باختصار شديد – قضية " زمن " وقضية أخذ بالأسباب ، وإلاّ فإن المعجزة لن تتحقق فيجيء الخلاص فجأة وعلى حين غفلة ، أو يتحقق ونحن قاعدون ، مستريحون ، كسالى، لا نعمل عقلاً ولا نحرك يداً أو لساناً ..

لقد كانت القضية دائماً ، قضية قدرة متفوقة على توظيف الزمن والمكان .. على اعمال العقل والحواس في الكتلة .. على اكتشاف نواميس هذا العالم وطاقاته المذخورة .. وقبل هذا وذاك ، على التحقق بمطالب وشروط الإيمان نفسه ، وهي مطالب صعبة ، باهظة التكاليف ، لكنها – إذا أحسن التعامل معها – أصبحت جواز سفرنا للعودة إلى التاريخ .. إلى الفعل الحضاري .. إلى أن تكون لنا خرائط في هذا العالم ومكان بين أممه وشعوبه.

ودائماً يتذكر المرء ، في موضوع كبير كهذا ، عبارة " جارودي " ذات المغزى العميق : " ماذا يستطيع الإسلام أن يقدّم لنا ليعدّنا للإجابة على المسؤوليات التي تفرضها قدرة العلم والتقنية على جميع البشر اليوم ؟ " وما يلبث أن يجيب : " إن المشكلة كونية ولا يمكن للجواب إلاّ أن يكون على المستوى الكوني .. إنها إذن قضية مستقبلنا ، قضية مستقبل جميع البشر ".

ويتذكر المرء أيضاً تعليق جارودي المؤثر على شعار " لا إله إلاّ الله " هذا الشعار القدير على تحويل الجبال عن مواضعها "!

لقد أريد لهذه الأمة أن تكون الأعلى والأقوى والأسرع في هذا العالم .. ولقد استطاعت عبر قرونها المتألقة الأولى أن تكون كذلك من خلال تحقّقها بالشروط .. وهي قديرة – مرة أخرى – على أن تنهض لكي تمارس الدور نفسه.

ومهما يكن من أمر فإن " القضية " من أطرافها كافة تؤذن بأن وعد الله آتٍ لا ريب فيه.

رسالة الإسلام السماوية التي هي خاتمة الأديان ، ومصدّقتها والمهيمنة عليها ..

الأمة الوسط التي لا تميل ولا تجور .. الشاهدة على البشرية ، والتي " يشهد " عليها خاتم الأنبياء (عليه أفضل الصلاة والسلام).

التيه العقدي والمذهبي الذي تتخبط فيه البشرية ، وتساقط جلّ المذاهب والنظم الوضعية ، ووصول الأديان المحرّفة إلى طرق مسدودة .. والانحرافات التي يعاني منها الإنسان الذي أصبح يملك العالم ولكنه خسر نفسه ، والتي تزداد معدّلاتها بصيغ متواليات هندسية تؤذن بالدمار.

الفساد الذي يغطي البرّ والبحر ، والذي يمضي لكي ينزل معاوله الهدّامة حتى في بنية العالم الطبيعية ، وسننه ونواميسه ، ويؤذن بتحويل الحياة البشرية على الأرض إلى حالة شبه مستحيلة.

ثم .. وقبل هذا وذاك .. وعد الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بأن المستقبل لن يكون إلاّ لهذا الدين ، وبأن رسالات الأنبياء (عليهم السلام) في هذا العالم لن تضيع .. وبأن لا غالب إلاّ الله : **{كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }**(المجادلة ، الآية ٢١).

حول " فقه الواقع "

يتحرك " فقه الواقع " وينسج معطياته بين حدّي تقديم الحلول الفقهية بمفهومها الحرفي (بكسر الحاء وفتح الراء) ، وصياغة منظومة من الأفكار والتصوّرات والضوابط والشروط المعنيّة بتقديم المشروع الحضاري الإسلامي.

والهدف في الحالتين هو إعادة صياغة مفردات الحياة بجزئياتها وكليّاتها ، وفق مقاصد الشريعة العليا.

ولقد كان المسلمون ، زمن تألقهم الحضاري في القرون المبكرة من تاريخ الإسلام ، فقهاء بحق ، في المستويين معاً .. ولذا قدروا على تحقيق المعجزة وصنعوا الحياة الإسلامية التي دعا إليها كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم).

ثم جاءت عصور الانكسار الحضاري ، والانسحاب من حركة التاريخ ، وغاب الإبداع والابتكار والتوقد العقلي ، فأصيب فقه الواقع بالعقم والشلل وغياب الفاعلية.

وها قد آن الأوان ، عبر مناخ مترع بالتحدّيات والمحفزّات الحضارية ، لاستعادة الدور الضائع ، ولن يكون ذلك إلاّ بفهم الواقع الذي تعيشه وتعانيه المجتمعات الإسلامية ، والتفقّه في مطالبه وضروراته.

ومنذ عصر الرسالة ، وفيما بعد ، كان " الواقع " دائماً هو نقطة الارتكاز ، وكان فقهه ، أي إدراك ضروراته وفق سلم أولوياتها ، هو المفتاح الذي مكن الأمة الإسلامية من الاستجابة للتحديات وإعادة صياغة " الوجود " وفق مقاصد " الوحي " القادم من السماء.

ان الاستمداد من الخبرة التاريخية لا يكفي وحده ، ومحاولة استشراف آفاق المستقبل لن تتحقق ما لم يكن الواقع الراهن هو نقطة الرصد والانطلاق.

ورغم أن القرآن الكريم محض أكثر من ثلثي مساحته للتاريخ ، فإنه لم يشأ أن يضع المسلمين تحت وقر الماضي ، وإنما أكد على التحرّر منه حيثما تطلّب الأمر ذلك ، وأعلن عبر آيتين في سورة البقرة ما يوحي بذلك : **{تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ }** (البقرة ، الآية ١٣٤) .. ذلك من أجل أن يكون المسلمون أكثر التحاماً بالواقع وإدراكاً لمطالبه وضروراته.

ونقطة الانطلاق هي تحديد مصطلح (فقه الواقع) وتحليل مفاهيمه ، ثم استعراض مبررّاته الأساسية ، فمتابعة الموضوع في كتاب الله وعبر عصر الرسالة والراشدين والتابعين ، ثم عصر أئمة المذاهب الذين مارسوا دوراً واسعاً في صياغة فقه الواقع تأصيلاً وتطبيقاً ، وأعانوا ، بجهودهم المعروفة ، على حماية وتأكيد الملامح الإسلامية للأمة.

وهذه المتابعة التاريخية لمسيرة (فقه الواقع) ضرورية في عملية عرض وتحليل المفاهيم الأساسية للمصطلح.

بعدها يجيء دور التعامل مع العصر الذي نعيشه بكل ما ينطوي عليه من معطيات وتحدّيات تتطلب استدعاء هذا الفقه لمجابهة محنة الاحتواء ، والتغريب ، والعولمة ، وصراع الحضارات ، في عالم يضيع فيه من لا يملك فقهاً عميقاً للواقع بكل حيثياته التاريخية والعقدية ، والحضارية في نهاية المطاف.

من هم الإرهابيون (١ من ٣)

المبادئ وحدها لا تكفي .. ولابدّ لتأكيد مصداقيتها من تحققها في الواقع ، وإلاّ فإنها ستسبح في الفضاء دون أن يكون لها رصيد على الأرض. ومن ثم تجيء شهادة التاريخ لكي تحقق هذا الهدف ، وتمنح القناعة لهذا الطرف أو ذاك.

وبقدر تعلّق الأمر بالتعامل القهري مع الآخر ، وابتزاز المغلوب ، وإرهاب الخصم ، فيما تحاول الولايات المتحدة اليوم – كذباً وافتراءً – أن ترمي به المسلمين ، فإن استدعاء التاريخ يغدو ضرورياً لتقديم شهادته بهذا الخصوص .. ليس من قبيل " تلميع " الموقف الإسلامي ، أو التوسل إلى الطاغوت العالمي في أن يكفّ عن توجيه اتهاماته .. وليس – كذلك – من قبيل لوي عنق الحقائق الثابتة ، كتحويل الجهاد – مثلاً – إلى عمل دفاعي صرف ، وإلغاء البعد الهجومي ، الانتشاري ، عن هذه الفاعلية المؤكدة في كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، كما يفعل اليوم الإعلام العربي المهزوم ، أو النخب المثقفة التي صدّقت أكذوبة أمريكا ودخلت طواعية قفص الاتهام ، وتحتّم عليها – من ثم – الدفاع عن نفسها وتبرئة ساحتها كي لا يغضب عليها السيّد المتفرد بالمصائر والمقدّرات.

ليس الهدف إذن ، هذا أو ذاك ، وإنما تقديم عدد من الشواهد ، أو الوقائع المقارنة بيننا وبينهم ، لكي يتبيّن أنهم هم ، ولسنا نحن ، الذين ذبحوا حق الآخر في البقاء والاستمرار ، وأنهم هم ولسنا نحن الذين استخدموا أكثر الأساليب إرهاباً ولا إنسانية لضمان مصالحهم البعيدة عن منظومة القيم الدينية والخلقية المتعارف عليها منذ وجد الإنسان على ظهر البسيطة.

في أعقاب معركة حطين عام (٥٨٣هـ) وتحرير القدس على يد الناصر صلاح الدين .. تداعت أوربا الصليبية بقسسها وأمرائها وملوكها وأباطرتها لاستعادة ما خسرته في المشرق ، وتأكيد وجودها الاستيطاني هناك. وانطلقت الجيوش الصليبية بقيادة الملك الإنكليزي ريتشارد قلب الأسد والملك الفرنجي فيليب أوغسطس والإمبراطور الألماني فردريك باربا روسا.

كانت عكا الفلسطينية الهدف الأول ، لاتخاذها نقطة ارتكاز لهجوم شامل تشنّه القوات الصليبية ضد المسلمين. وما لبثت جيوش الإنكليز والفرنجة أن طوّقت المدينة ، أما الجيش الألماني فقد عاد أدراجه بعد المقاومة الإسلامية التي لقيها في الأناضول وغرق إمبراطوره في نهر هناك.

قاومت الحامية الإسلامية الأشهر الطوال مقاومة بطولية ، وكان الناصر صلاح الدين يمدّها بما يقدر عليه من مؤن وعتاد. ولكن الهجوم الصليبي الشرس كان يقف في معظم الأحيان حائلاً دون ذلك.

وبمرور الوقت لم يعد للحامية الإسلامية أية قدرة على مواصلة الدفاع عن المدينة .. لقد اعتصرهم الجوع ، والجهد ، والسهر ، والقتال .. غدوا أشباحاً تتحرك بفتور عند أعالي الأسوار.

وما لبث الناصر صلاح الدين أن وجد نفسه أمام الأمر الواقع .. أن يعطي الإشارة للحامية بالاستسلام المشروط وإلاّ فإنه الفناء المحتوم. وتم الاتفاق مع الملك الإنكليزي ريتشارد ، الذي ظلّ وحده في الميدان بعد أن عاد الملك الفرنسي إلى بلاده ، على شروط التسليم وفي مقدمتها تأمين الحامية ، والسماح لأفرادها بمغادرة عكا.

إلاّ أن القوات الصليبية ما أن دخلت عكا حتى أمر الملك الإنكليزي بصفّ أفراد الحامية البالغ عددهم حوالي الثلاثة آلاف مقاتل ، عند أسفل الجدار ، وطلب من جنده تصفيتهم جميعاً ، الواحد تلو الآخر.

كان الناصر صلاح الدين على رأس ثلّة من قواته يعسكر عند التلال المحيطة بالمدينة ، ورأى بأم عينيه مصارع جنده الذين اعتصرهم الجوع ، والسهر ، والمعاناة الطويلة فأخذت عيناه تذرفان بصمت.

كان يقف إلى جواره القاضي بهاء الدين بن شداد ، كاتبه ومرافقه ، فقال له : أيها السلطان إن بين يديك من أسرى الفرنجة بضع مئات ، فأقتلهم أيها السلطان .. واحدة بواحدة .. والبادئ أظلم.

ويردّ عليه صلاح الدين : لا والله .. لن أكون مثلهم .. لقد اطمأنوا إلى عهدي وكلمتي .. ولن أكون مثلهم ..

ويجد المرء نفسه في اللحظات الراهنة مضطراً للمقارنة بين هذه الواقعة وواقعة (قندوز) الأفغانية ، حين أجهزت القوات الأمريكية وتحالف الشمال على مئات من الأفغان العرب والشيشان والباكستانيين ، كانوا قد استسلموا للغزاة .. فذبحوهم جميعاً ..

فمن هو الإرهابي في هذا العالم ، وعلى مدى التاريخ ، نحن أم هم ؟ ومن هو الأكثر التزاماً بشرف الكلمة وقدسية العهد ، نحن أم هم ؟ أليسوا هم أحفاد كرادلة وقسس العصر الصليبي الذين رفعوا شعار " لا عهد لمسلم " ، وجعلوا السكين لا الكلمة ، أداة الحوار الوحيدة بين الإنسان والإنسان ؟

من هم الإرهابيون (٢ من ٣)

التعامل مع " الآخر " يمثل أحد الأوجه الإنسانية المشرقة لحركة الفتح الإسلامي ، وهو يمسّ إحدى القضايا الأكثر أهمية عبر اللحظات الراهنة فيما يسمى بالنظام العالمي الجديد ، أو الموحّد ، وإشكالية حقوق الإنسان ، وظاهرة الإرهاب. ولذا سنقف عنده قليلاً لمتابعة بعض المقارنات.

في أعقاب فتح خيبر من العام السابع للهجرة وضع الفاتحون المسلمون أيديهم على ملفّات من أسفار العهد القديم ، وجاءوا بها إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

كان بمقدوره وهو المنتصر على فئة من الخصوم ما وجدت فرصة مشروعة أو غير مشروعة إلاّ سخّرتها لتدمير الإسلام والمسلمين ، والقضاء على رسولهم ودولتهم ، أن يأمر بإحراقها. لكنه (صلى الله عليه وسلم) ما لبث أن أعاد إلى اليهود أسفارهم دون أن يمسّها بأذى.

" إسرائيل ولفنسون " الباحث اليهودي المصري ، يشير في رسالة للماجستير عن (تاريخ العلاقات اليهودية الإسلامية في جزيرة العرب) إلى هذه الواقعة بإعجاب ، ويقول إن اليهود لا يزالون يشيرون بالبنان إلى سماحة نبيّ الإسلام ، وتفوّقه على كل اغراءات التعصب فيما لم تفعله النصرانية في تاريخها كلّه وهي تكتسح خصومها.

يمكن مقارنة هذا بما فعلته محاكم التحقيق والكنيسة الكاثوليكية في الساحة الأندلسية إزاء التراث الإسلامي هناك. لقد كانوا يصدرون أوامرهم بجمع هذا التراث ، الديني وغير الديني ، ويركمونه أكداساً في الساحات العامة في قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغرناطة لكي يشعلوا فيه النار قبالة جماهير المسيحيين التي كانت تستدعى لمشاهدة ما سمتّه الكنيسة بـ " أعمال الإيمان ".

وثمة إحصائية تشير إلى أنه لم يتبقّ من هذا التراث الذي بلغ ما يقرب من ثمانمائة ألف سفر ، سوى ثمانية آلاف وضعت في أقبية الاسكوريال في مدريد ، وهناك لاحقتها النار فأحرقت منها ستة آلاف أخرى ، حيث لم يتبقّ اليوم سوى ألفي مخطوط من ذلك التراث الخصب الذي غطى سائر فروع المعرفة الإنسانية والعلمية.

في عصر الراشدين (رضي الله عنهم) كانت قوات الفتح تنطلق إلى جبهات القتال وهي تحمل أوامر صارمة من خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بألاّ تغدر أو تحرق أو تخرّب، وبأنها ستمرّ على رهبان قد انعزلوا في صوامعهم فلا تروّعهم أو تعتدي عليهم .. أوامر حذّرتها من قتل المسالمين وإرهاب النساء والشيوخ والأطفال ، بل حتى من قطع الأشجار وإتلاف الزرع والضرع. لقد كان قتالاً متحضّراً بمعنى الكلمة ، قتالاً ضبطته قيم الدين الآتي من عند الله

سبحانه ، فلم يرفع السيف ، وهو يلاحق السلطات الباغية ، ضد كل الذين لم يمارسوا العدوان .. لقد جاء المسلمون لتحريرهم لا لقتلهم.

ونحن نجد ، قبالة هذا التعامل الإنساني العادل والصارم ، تجاوزاً لكل الاعتبارات الإنسانية والأخلاقية ، في الممارسات القتالية الغربية فهي – من أجل أن تحقق الانتصار – تبيح لنفسها كل أسلوب. ومعظمنا يذكر ما فعله الاستعمار الإنكليزي والفرنسي في ديارنا على مدى قرن ونصف القرن ، وما فعلته أمريكا باليابان بعد إذ أدركت قدرة الأخيرة واستعدادها لإدامة الحرب العالمية الثانية عدة سنوات أخرى بسبب إمكاناتها القتالية ، والتكوين الأرخبيلي لجغرافيتها ، فما كان من أمريكا إلاّ أن تضرب اثنتين من أكبر المدن اليابانية : هيروشيما وناغازاكي بقنبلتين ذرّيتين دونما أي تمييز بين مقاتل ومسالم ، بين رجل أو شيخ أو طفل أو امرأة ، ودونما اعتبار للمظاهر العمرانية على الإطلاق.

من هم الإرهابيون (٣ من ٣)

عندما هاجر أجدادنا إلى يثرب ، زمن محنتهم مع الوثنية العربية في مكة ، صاروا إخواناً للأنصار من سكان المدينة .. وفتح هؤلاء صدورهم ، وقلوبهم ، ودورهم ، للمهاجرين ، لأنهم كانوا يعرفون تماماً أن هؤلاء المهاجرين ما جاءوا لكي يخرجوهم من الأرض و(يستوطنوا) ديارهم، وإنما هي ضرورات الدعوة التي تطلبت في مرحلتها التالية إقامة الدولة التي تحمي مقدّرات الدين الجديد وتمده في الآفاق. ولقد كانت تجربة " المؤاخاة " التي نادى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم نموذجاً إنسانياً نادراً في التحام الفئتين وتآخيهما المدهش في الله ، وسعيهما المشترك لتحقيق الهدف العزيز.

أعطى الأنصار كل ما عندهم للمهاجرين ، ولم يحاول هؤلاء لحظة واحدة ، أن يكونوا عالة على إخوانهم ، فشمّروا عن ساعد الجد من أجل بلوغ مستوى الكفاية ، فيما هو معروف لدارسي السيرة بتفاصيله ودلالاته.

وعندما هاجر الأنجلوسكسون ، والأوربيون عموماً ، إلى العالم الجديد كان أوّل ما فعلوه هو إبادة سكان البلاد الأصليين من الهنود الحمر حيث لم يبقوا سوى على قلّة منهم لا تكاد ترى على خارطة الديموغرافية الأمريكية.

الشيء نفسه فعله ، وما يزالون ، شذّاذ الآفاق من بني إسرائيل من خلال تعامل دولتهم المغتصبة مع الفلسطينيين من سكان البلاد الأصليين.

إنه منطق الاستيطان القسري في الحالتين .. منطق نفي الآخر وإخراجه من الأرض.

عندما فتحنا العالم كنّا محرّرين ، بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معنى .. إزاحة الطواغيت والسلطات الباغية عن مواقعها القيادية التي تتحكم من خلالها بمصائر الناس ، ومنح الحرية الدينية والمدنية للجماعات والأمم والشعوب .. وكان شعار الفاتحين " الله ابتعثنا لكي نخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ".

وعندما خرج الغربيون لاستعمار العالم ، كانوا مستعبدين (بكسر الباء) بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معنى .. لقد أرادوا استنزاف خيرات الأرض ، وتسخير الأمم والشعوب لمصالحهم الاقتصادية وأهدافهم السياسية ، بعيداً عن أية قيمة أخلاقية أو إنسانية على الإطلاق.

والنتيجة ، التي هل الحكم الفصل ، أننا بقينا في جلّ الديار التي فتحناها ، وخرجوا هم – مرغمين – عن كل البلاد التي استعمروها.

لقد خرجنا لكي نحمي ونؤكد حقوق الإنسان ، في سياقاتها كافة ، وجاءوا هم لكي يغتالوا هذه الحقوق في سياقاتها كافة.

عندما دخل الصليبيون القدس عام (٤٩٢هـ) ، بعد تآكل معظم المقاتلين المسلمين الذين حاولوا الدفاع عنها ، سلّط الغزاة سكينهم على النساء والأطفال والعجزة والشيوخ ، فذبحوا منهم سبعين ألفاً فيما يرويه أحد فرسانهم صاحب مدوّنة معروفة باللاتينية تدعى " وثيقة الجشتا " والتي يقول فيها إن خيول الفرنجة كانت تغوص حتى ركبها في دماء المسلمين وهي تجتاز دروب القدس وأحياءها ..

وعندما عاد إليها الناصر صلاح الدين فاتحاً محرّراً لم يقتل مسيحياً واحداً ، بل لم يمنع الصليبيين الغزاة أنفسهم من مغادرة القدس وهم يحملون معهم ما يشاءون من متاع.

ليس هذا فحسب ، بل إن امرأة فرنجية تقدمت إليه ، منكوشة الشعر ، باكية مولولة ، وهي تضرب وجهها وصدرها .. فسأل أحد مترجميه : " ما بها ؟ " فأعلمه أنها فقدت ابنة لها لم تتجاوز الرابعة من العمر.

نصب لها السلطان خيمة جعل عليها من يحرسها ، وقال لها : اطمئني يا امرأة فسوف نعيد إليك ابنتك الضائعة .. وبعد ساعات قلائل أعيدت إليها الطفلة ، فأنكبت الأم على يد السلطان تريد تقبيلها امتناناً وعرفاناً .. ولكنه يسحبها بهدوء وهو يقول : هذا ما علّمنا إياه رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

السلطان يحمي الطفولة من الضياع .. ويقدّر مشاعر الأم ، فيفعل ما لم يخطر لأحد على بال .. إعادة الطفلة إلى حضن أمها .. الطفلة التي ربما كان جدّها قد قتل من المسلمين زمن اجتياح القدس العشرات.

والصرب المسيحيون في البوسنة يهتكون في ليلة واحدة عرض خمسين ألف فتاة مسلمة تحت مظلة ما أسموه " التطهير العرقي " وهم يجتاحون قرى المسلمين وديارهم.

فمن هم مغتالو حقوق الإنسان ؟ ومن هو (الإرهابي) في هذا العالم : المسلم أم المسيحي الغربي ؟!

سلطة الأشباح

الرأي العام العالمي .. القوانين الدولية .. الشرعية الدولية .. قرارات محكمة العدل .. مبادئ الأمم المتحدة .. حقوق الإنسان .. إلى آخره .. إلى آخره .. من " خيالات المآتة " التي عرف خصوم هذه الأمة ومستنزفو دمائها ، كيف ينصبونها في بساتين العالم لكي يخيفوا بها الطيور والعصافير بينما النواطير الكبار وثعالبهم يبتزّون ويسرقون ويأكلون حتى التخمة ، فيما يذكرنا ببيت المتنبي المعروف :

نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بشمن وما تفنى العناقيد

ومن عجب أن الكبار هؤلاء ، كلما ازدادوا استهتاراً بالقيم والمؤسسات الدولية ، وتجاوزاً لمطالبها ، وتوظيفاً لها ، للتحقق بأكبر قدر من الكسب غير المشروع ، زاد الصغار في دول العالم الثالث تشبثاً بها ، والتزاماً بمطالبها ، بل والتعامل معها كما لو كانت تنطوي على قدسية من نوع ما ، على سلطة فوقية ليس من حقّ أحد الاعتراض عليها ، أو التردّد قليلاً في الانحناء لمقولاتها ..

وها قد مضى أكثر من نصف قرن ، واللعبة الدولية هي اللعبة : الكبار يأكلون والصغار يتضوّرون جوعاً .. والمؤسسات (الكبرى!) تحمي أولئك من ردّ هؤلاء ، أو انتقامهم ، أو حصولهم – في الأقل – على البقايا والفتات ..

ثم ما لبث العقد الأخير من القرن الماضي وبدايات القرن الجديد أن شهد وضعاً " دولياً " أكثر سوءاً بكثير مما كان عليه الحال في الزمن الماضي ، فيما يتعلّق بأخلاقية التعامل مع القيم والمؤسسات الدولية .. فها هي ذي الدول الأقوى في العالم ، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ، تمتطي ما تسمّيه " الشرعية الدولية " التي تمنحها تلك المؤسسات ، أو ترغم على منحها بعبارة أدقّ ، لكي تلحق الويل والدمار بالشعوب المستضعفة وتزيد من تجبّرها في الأرض ، وتفرّدها في حكم العالم والاستئثار بمقدّراته.

وحيثما لقيّت اعتراضاً ، من هذه الدولة أو المجموعة الدولية ، أو تلك ، لجأت إلى كوميديا " الفيتو " فنكثت غزلها ، وأحبطت قرارها ، لكي لا يتبقى في نهاية الأمر إلاّ كل ما يخدم مصالحها وسياساتها ..

أما آن الأوان للأمة الإسلامية ، ولدول العالم الثالث المنكود ، أن تنتبه للعبة الماكرة ، وأن تسعى ، أو ترفع صوتها على الأقل ، لإعادة ترتيب الأمور فيما يجعل هذه المؤسسات والقوانين الدولية أكثر عدلاً ، وأقدر في الوقت نفسه على تنفيذ قيم الحق الضائعة في هذا العالم ؟

في يوم ما من بدايات العصر المدني كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، قد عنف عدداً من أصحابه لأنهم اشتبكوا مع المكّيين في الأشهر الحرم فقتلوا أحدهم وأسروا اثنين آخرين

وقالت قريش : قد استحلّ محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم .. لكن آيات القرآن الكريم سرعان ما تنزّلت لتحدّد الموقف الحازم إزاء القيادة الوثنية التي كانت قد سبقت إلى انتهاك الأشهر الحرم فقاتلت المسلمين الجدد فيها ، وعذّبتهم ، واضطهدتهم ، وفتنتهم عن دينهم ، وأنه قد آن الأوان للمسلمين أن يردّوا على هذا الانتهاك الصريح ، لأن التشبث بحرمة الشكليات هزيمة لا مبرّر لها في ساحة الصراع العنيف بين المعسكرين : **{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }** (البقرة ، الآية ٢١٧).

وإذا كان خصومنا منذ منتصف القرن العشرين قد مارسوا بحقّ عالم الإسلام أبشع صيغ الابتزاز والاستلاب تحت مظلّة " الشكليات " الدولية ، أفلا يتحتم على قيادات هذه الأمة أن تعيد النظر في الموضوع برّمته ، ليس بالدعوة إلى إلغاء أو تجميد المؤسسات والأعراف الدولية أو الانسحاب منها ، ولكن بإعادة ترتيبها فيما يجعلها أقرب إلى الحقّ والعدل ، وأبعد عن ابتزاز الثعالب والنواطير .. ؟

واقعنا الإسلامي التاريخ والوعد

إن واقعنا الإسلامي الذي يتجذر في الماضي ، عبر مدى متطاول يمتد أربعة عشر قرناً من الزمن ، سيمضي صوب المستقبل محمّلاً بالخبرات كلها .. بالانتصارات والانكسارات .. بالإبداعات والاستجداءات .. بالتوحّد والتمزّق .. بالاستعلاء والاستخذاء .. وبكل ألوان القهر والتحرّر .. والإحباط والتحقّق ..

واقعنا الإسلامي دفق مترع بالعطاء ، لا يكف لحظة عن تلّقي مكوّناته من نهر التاريخ ، ولا يتوقف لحظة عن المضي إلى المصبّ الذي ينتظره في بحر المستقبل القريب والبعيد ..

واقعنا الإسلامي أخذ وعطاء .. استمداد ومشاركة .. ماضٍ ومستقبل .. صيرورة تتوحد فيها مقاطع الزمن فيصبح التاريخ حاضراً ومستقبلاً ، ويصبح الحاضر والمستقبل تاريخاً ..

لقد اقتحمت هذه الأمة يوماً ، باسم الله ورسوله ، حواجز الجغرافيا ، وكسرت الأرقام الاعتيادية وغيرت خرائط التاريخ .. وما لبثت أن انكسرت بغياب قوة العقيدة وقدرتها على الفعل والإنجاز .. مرة ومرتين وثلاثاً .. ولكنها كانت في أعقاب كل مرة تنهض من جديد .. تنبعث بسرّ العقيدة نفسها لكي تستعيد الدور.

وها نحن نستمع اليوم إلى مفكرين قادمين من خارج دائرة الإسلام ، يتحدّثون عن الأمر نفسه : قدرة هذه الأمة ، بعقيدتها ، على أن ترجع ، لا لكي تتوحّد وتلتّم وتداوي جراحها فحسب، ولكن لكي تشارك في إنقاذ الإنسان المعاصر على مدى العالم كلّه .. لكي تحضر في قلب المستقبل فتداوي جراحه وتمسح على عذاباته ، وتكون شفاء لما في الصدور.

قد نتذكر هنا استنتاجات (رجاء جارودي) حول ما يمكن أن تفعله شهادة (لا إله إلا الله) في مستقبل البشرية .. هذا الإثبات الأساسي الذي يقول : لا .. لكل الصنميات والوثنيات الزائلة التي تأخذ بخناق الإنسان في العالم ، فيحرّره ، ويرفعه إلى فوق ، ويمنح حياته ووجوده مغزاهما المفقود .. ويعيد للعالم ، كما يقول ليوبولد فايس (محمد أسد) : " سرّ طلاوة الحياة الضائع " !

شهادة (لا إله إلا الله) التي – كما يقول جارودي – نقلت الجبال عن مواضعها .. وهي قادرة على أن تزحزحها كرة أخرى ..

إن نقطة الاستقطاب في جدلية الزمن الإسلامي يمكن أن تكون نوعاً من البحث عن هويّة لواقعنا الذي فقد الكثير من خصائصه ، ومقوّماته الأصيلة ، فتاه في تيارات التغريب والتشريق .. ويمكن أن تكون كذلك محاولة لتصوّر وظيفة ما قد تمارسها هذه الأمة في مستقبل قريب أو بعيد .. ويمكن أيضاً أن تكون متابعة تحليلية ووصفية لهذا الواقع كما هو عليه الآن ، للتأشير على نقاط القوة والضعف فيه ، وتبيّن الأسباب.

وبإيجاز بالغ ، فإن واقعنا الإسلامي ، بإحالته على التاريخ ، يكشف عن الحالات التالية :

أولاً : انه كان يمارس دوراً حضارياً فاعلاً ، ففقد الكثير من مقوّماته.

ثانياً : انه كان يملك هوية محدّدة الملامح ، وخصائص تميّزه عن الآخرين ، فأصبح في القرون الأخيرة وقد فقد الكثير من سماته وملامحه.

ثالثاً : انه يمكن أن يستعيد الدور ويتحقّق بالهوية إذا توفرت الشروط الملائمة من الفاعلية والأخذ بالأسباب ، وتلبية مطالب قوانين الحركة التاريخية وسنن الله في العالم ، فيما سبق وأن أكده كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، وبذلك وحده يملك جواز سفره إلى المستقبل ويشارك في المصير.

الإبحار ضد الهداية

قتلة الأنبياء .. ومحرّفو الكلم عن مواضعه .. ومخرجو الأهل من الديار .. ومزيفو التوراة .. ومحترفو العصيان .. هذا ما فعله بنو إسرائيل عبر تاريخهم الطويل ..

إنه إبحار ضد الذات .. ضد أنبيائهم هم .. وأهليهم هم .. وكتبهم هم .. ومع ذلك فهم يدّعون التشبث بدينهم اليهودي ، ويستميتون من أجله ، ويعتبرون دولتهم " العبرية " ضرورة دينية وتاريخية ، ومرآة صادقة تعكس هذه الضرورة.

أي تناقض هذا بين الحقيقة والواقع .. بين الدين والتاريخ .. عبر زاوية مقدارها مائة وثمانون درجة ؟

ومع ذلك فهم يعتبرون أنفسهم التلاميذ المخلصين ، والأبناء البررة لدينهم وأنبيائهم ..

ومنذ لحظات " الخروج " الأولى من عبودية فرعون مصر ، كشف الالتواء الإسرائيلي عن نفسه بالتنازل عن أفق التوحيد العالي لله (سبحانه وتعالى) صوب عبادة العجل الذهبي الذي صنعه لهم السامري ..

بعدها بدأ العدّ التنازلي عن التعاليم التي جاءهم بها موسى (عليه السلام) من جبل الطور .. وراحت ممارساتهم المضادة تزداد حتى شكلّت بمرور الوقت تياراً هادراً من المعطيات الدينية والسلوكية والتاريخية ، غطت تماماً ، على جوهر اليهودية الأصيل.

والذي يقرأ التوراة ، أو ما يسمى بأسفار العهد القديم ، يجد العجب العجاب : فضائح تزكم الأنوف .. تربأ الألسنة العفّة حتى عن سردها على مسامع الآخرين .. فكيف بها كتاباً سماوياً كما يدّعون ، وعبادة يتقربون بها إلى الله ؟! أنبياء بني إسرائيل يشربون الخمر حتى الثمالة ، ويضاجعون بناتهم .. ويتآمر بعضهم ضد بعض ..

والله (سبحانه وتعالى) – وحاشاه – يدخل هو الآخر ساحة الصراع والتآمر والانحياز ، وتحكمه العواطف والانفعالات التي تحكم سائر البشر ..

والقيم الخلقية يضحىّ بها .. ويختلط الخير بالشر ، والهدى بالضلال ، والنور بالعتمة .. وتتميع القيم .. وتغرق الثوابت الدينية والسلوكية في بحر من ضباب الخطايا والآثام ..

أي دين هذا يدّعي أصحابه وحاخاماته التزامهم به ، وحرصهم عليه ، واعتمادهم كل أسلوب ، مهما كان مضاداً للمبادئ والقيم الدينية والإنسانية ، لتأكيد كلمته في الأرض ؟!

أيّ دين هذا يعطي المبرّر لكل أتباعه ، ومنذ اللحظات الأولى ، للفسق والفجور .. ما دام أنبياؤه الكبار (وحاشاهم) يقترفون الكبائر والموبقات ، دون أن يردعهم وازع من ضمير ديني أو تعليم سماوي ؟

مريم ، أم السيّد المسيح (عليهما السلام) تتلقى هي الأخرى دخان بني إسرائيل ، والتواء سرائرهم ، وعتمة قلوبهم وأرواحهم ، ونزوعهم الفاجر الذي يعلن الحرب على الطهر والنقاء ..

مريم ، في توراتهم ، تصير – وحاشاها – زانية ..

مريم العذراء البتول التي نُذرت للمحراب ..

ويتذكر المرء ، وهو يغوص في هذا المستنقع التوراتي المترع بالقذارة والآثام ، والتناقض الفاضح مع بداهات الأديان .. ما الذي قاله القرآن الكريم عن مريم نفسها .. ويقارنه بهذا الذي تقوله التوراة ، فيجد الفارق كبيراً .. كبيراً .. **{ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ }** (آل عمران ، الآية ٤٢)!

ومقاطع وآيات أخرى منبثّة في ثنايا كتاب الله ، تقدم صورة مترعة بالطهر والوضاءة عن مريم العذراء البتول.

ويتذكر المرء كذلك ، ما قاله المستشرق الفرنسي المعروف إميل درمنغهم في كتاب (حياة محمد) من أنه يتحتم على المسيحيين في العالم أن ينحنوا إجلالاً للقرآن الكريم الذي قدّم هذه الصورة العليا عن أم نبيّهم عيسى (عليه السلام) ، بينما كذبت عليها التوراة ، وشوّهت صورتها، وانحدرت بها – وحاشاها – إلى القرار ..

ويتساءل المرء ، في ضوء هذا وذاك ، لماذا يقف معظم النصارى في العالم موقف الكراهية والصدّ والخصومة والكيد والبغضاء إزاء الإسلام الذي كرّم كتابه الكريم ، نبيّهم وأمّه الصديقة ، ولماذا يفتحون صدورهم وقلوبهم ويضعون مصائرهم ومصائر بلدانهم بيد اليهود الذين قالوا في مريم ما قالوا ؟!

والجواب معروف .. ولكنه في كل الأحوال ، غير مبرّر على الإطلاق ..

لماذا يصير التناصر الإسلامي جريمة ؟

في غبار واقعة الحادي عشر من أيلول لويت أعناق قضايا وحقائق كثيرة ، وربما بزاوية مضادة قدرها مائة وثمانون درجة !!

ومن بين هذه القضايا والحقائق مسألة التناصر بين أبناء الأمة الواحدة في مواجهة التحديات والمخاطر والعدوان.

فمن حقّ كل أمة ، ليس وفق منطوق الجهاد الإسلامي وحده ، وإنما بشكل عام يمضي باتجاه الجماعات والأمم والشعوب كافة ، على تباين اتجاهاتها وعقائدها ، أن تتداعى على بعضها ، وأن تتناصر فيما بينها ، عبر تلك اللحظات التي تتعرّض فيها لغزو أو تحدّ أو خطر ما .. تماماً كما تتحفز الكريات البيض في الجسد البشري كلّه ، لمجابهة واحتواء هجمات الفيروسات والجراثيم ..

كانت هذه " الحالة " هي الأمر السائد منذ بدايات تاريخية مبكرة وحتى العصر الحديث .. فلقد تداعت أوربا بشعوبها وجيوشها وفرسانها وقادتها وإقطاعيها وأمرائها وملوكها وأباطرتها ، ونصر بعضها بعضاً ، وهي تقذف الشام وفلسطين ومصر وغيرها من أقاليم الإسلام ، زمن الحروب الصليبية ، لتحقيق أهدافها الاستيطانية ، أو حمايتها من التآكل والضياع .. وظلّت تمارس الفعل نفسه على مدى مائتي سنة ، وعبر تسع حملات تدّفقت على عالم الإسلام لكي تقتل وتخرّب وتؤكد الوجود الصليبي في ديارنا.

وكان أمراً طبيعياً أن يتداعى المسلمون أنفسهم ، في المقابل ، حكاماً وقادة وشعوباً ، وأن يتناصروا ، لمجابهة الموقف واسترداد الحق المغتصب. وكنا نقرأ في مصادر الحروب الصليبية عبارة طالما تردّدت على ألسنة المؤرخين وهي أن القائد أو الأمير الفلاني " خرج للجهاد وخرج معه العرب والتركمان والأكراد " الذين كانوا يتدفقون من كل مكان في ديار الإسلام لمجابهة العدوان.

الشيء نفسه حدث زمن الاستعمار القديم .. أوربا تتداعى وتتناصر لتحقيق وحماية أهدافها الاستعمارية في الأرض الإسلامية .. والمسلمون يتدفقون من كل مكان للجهاد ضد الخصوم ..

وفي كتاب (الطريق إلى مكة) للباحث النمساوي ليوبولد فايس (محمد أسد) حديث طويل مترع بالتفاصيل ، عن قيامه وحشود من المجاهدين بمحاولة اللحاق بعمر المختار وإخوانه في ليبيا لمقاومة الإيطاليين.

وما هي إلا حلقة من مئات الحلقات ، وربما ألوفها ، عن حالة التناصر بين أبناء الأمة الواحدة ، سواء وهي تهاجم أو تدافع عن نفسها.

لقد استنجد الأمير الأندلسي المعتمد بن عباد ، حاكم إشبيلية ، بأمير المرابطين في المغرب : يوسف بن تاشفين ، فعبر هذا إليه على رأس جيش كبير والتقى الملك الإسباني النصراني الفونسو السادس وهزمه في معركة الزلاقة الشهيرة عام (٤٧٩ هـ) هزيمة منكرة أمدّت في عمر الوجود الإسلامي في الأندلس أربعة قرون أخرى.

بل إن دولة إسرائيل المغتصبة نفسها لم تكن لتقوم لولا تناصر يهود الشتات من كل مكان في العالم ، بالمال والرجال ، لدعم الأهداف العدوانية للصهيونية .. كما لا يزال الناس يذكرون كيف كانت النشرات الإخبارية في النصف الثاني من القرن الماضي تتحدث ، يوماً بعد يوم ، عن المرتزقة الأوربيين الذين كانوا يتدفقون على إفريقيا لإسناد الوجود الأوربي الاستعماري هناك، في هذا البلد أو ذاك من القارة السمراء ..

فما الذي حدث لكي تتحول مسألة التناصر هذه إلى ظاهرة إرهابية مرفوضة ، ومدانة ، ومطاردة من قبل الدول الكبرى ، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ؟! ولماذا أصبحت قضية ما أسموه بالأفغان العرب ، " جريمة " تعاقب عليها القوانين الدولية ، ويتلقى أصحابها أبشع صيغ التعامل اللاإنساني في السجون والمعتقلات وأماكن الأسر ؟

وما الذي حدث لكي تقفل الأبواب في الساحة الفلسطينية كي لا تتلقى أيّ دعم أو إسناد من المسلمين في العالم ، ويترك الفلسطينيون لوحدهم يجابهون بأيديهم وحجارتهم الطاغوت الإسرائيلي المدعم بالقدرات العسكرية اليهودية والأمريكية ؟!

ما الذي حدث لكي تتحول الحالة المتفق عليها عالمياً حتى عهد قريب ، إلى جريمة يعاقب عليها القانون ؟

الجهد في حدوده الدنيا

إحدى مشاكل هذه الأمة ، بل إحدى مصائبها في عصور انهيارها وانسحابها من التاريخ .. أنها في لحظات الخطر والتحدّي ، لا توظف ، أو تحاول توظيف طاقاتها وقدراتها كافة في أعلى وتائرها ، كما فعلته ولا تزال دول الغرب بدءاً من عصر الحروب الصليبية وحتى اللحظات الراهنة وعلى كل المستويات السياسية والعسكرية والاقتصادية .. بل حتى الثقافية والإعلامية.

إن أمتنا كانت في معظم الحالات توظف العشر ، أو ربما أقل من العشر ، وتبقي الأعشار الأخرى مجمّدة ، أو مشلولة ، أو عاجزة عن الفعل .. وقد توظف – أحياناً – لعرقلة العشر الفاعل ووضع العصي والعراقيل في عجلته الدائرة ، سواء من قبل الحكومات والنخب المتسلّطة ، أو الشعوب والجماعات نفسها.

ربما يكون هذا هو أحد أسباب هزائمنا المتكررة على مدى القرون الأخيرة ، وبخاصة القرن المنصرم .. وهو نفسه السبب الرئيسي في تفوّق " الآخر " علينا وتمكّنه من رقابنا على كل المستويات بما فيها المستوى الديني !

ويتذكر المرء كيف أن أوربا ، زمن الحروب الصليبية ، كانت تستجيش كل طاقاتها البشرية والعسكرية والسياسية ، لتحقيق أهدافها الاستيطانية في الأرض الإسلامية ، أو لحماية وجودها إزاء تحديات وضربات المقاومة الإسلامية ، وبخاصة في تلك اللحظات التي تفقد فيها موقعاً مهماً ، أو إمارة من الإمارات.

كان الفرسان والأمراء والملوك والأباطرة يتداعون إلى حملة جديدة ضد عالم الإسلام ، ومن ورائهم شعوب أوربا من أقصاها إلى أقصاها : الفرنجة والجرمان والانجلوسكسون والنورمان .. وغيرهم ..

وفي عصر الاستعمار أعادت أوربا الدور نفسه ، رغم صراع المصالح بين دولها وإمبراطورياتها .. وطالما كانت توظف قدراتها ، في أقصى حالاتها ، سواء في حدود كل دولة ، أو نطاق مجموعة من الدول الأوربية ، كانت ضرورات حماية الذات في مواجهة تحديات المستعمرين تدفعها إلى حشد قواها مجتمعة لمجابهة الموقف .. وكلنا يذكر كيف أن فرنسا الاستعمارية حشدت جلّ طاقاتها في الجزائر ، لإسناد جارتها إسبانيا في المغرب ، وهي تترنّح ، وتكاد تمنى بهزيمة ساحقة أمام ضربات المجاهدين المغاربة تحت قيادة الأمير عبد الكريم الخطابي في جبال الريف.

الصهاينة فعلوا الشيء نفسه باستجاشة القوى اليهودية في العالم كله ، ومن ورائهم دول وقيادات المعسكرين الرأسمالي والشيوعي ، لتحقيق أهدافهم العدوانية في فلسطين ، حتى تمكنوا

في نهاية الأمر من اغتيالها عبر واحدة من أكثر الحلقات بشاعة ولا إنسانية وسوءاً في التاريخ البشري.

أمريكا ، بعد واقعة الحادي عشر من أيلول ، بشكل خاص ، تمارس الحالة نفسها : استجاشة قدراتها المتفوّقة في سياقاتها كافة : العسكرية والسياسية والاقتصادية والإعلامية ، للإجهاز على عالم الإسلام ، وتدمير أنشطته الدعوية والسياسية والاقتصادية ، فيما يسميه الحملة الشاملة لمقاومة الإرهاب .. وسعت منذ اللحظات الأولى إلى استجاشة العالم كلّه للوقوف إلى جانبها وتقديم أقصى ما يستطيع لتحقيق هدفه هذا ، رافعة شعار : " من لم يكن معنا فهو ضدّنا ".

وكان كتاب الله (سبحانه وتعالى) قد أكدّ المرّة تلو المرّة على ضرورة أن تتعامل الأمة الإسلامية مع المبادئ والخبرات والتحدّيات بأقصى درجات القوة والفاعلية : **{... خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }** (البقرة ، الآية ٦٣) **{... فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ... }** (الكهف ، الآية ٩٥) **{ ... ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }** (المائدة ، الآية ٢٣).

وعلّمتنا سيرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كيف أنه كان يأخذ الأمور ويتعامل معها ببذل الجهد – عبر مستوياته كافة – في حدوده العليا ولن يتّسع المجال لإيراد الشواهد والتفاصيل.

فما لنا نحن ، عبر القرون الأخيرة ، ننزل درجات السلم العالي ، ونختار الأدنى ، ونبذل الجهد في حدوده الدنيا ، فنخالف بذلك واحدة من أكثر ملامح الخطاب القرآني والنبوي عمقاً ووضوحاً ؟!

أفيحق لنا – في ضوء ذلك – أن نتباكى على حظوظنا العاثرة ، وتخلّفنا ، وانكسارنا .. ثم نعلق ذلك كلّه على مشاجب الآخرين ؟!

شارون .. والمغول

يعكس وضع الأمة الإسلامية اليوم ، حكاماً ومحكومين ، حالة تاريخية تشبه إلى حدّ كبير مرحلة الغزو المغولي لعالم الإسلام في القرن السابع الهجري ، سواء في عهد جنكيزخان (الجدّ) أو هولاكو (الحفيد) ..

فالإرهابي السفّاح شارون يبدو نسخة مكرورة لجنكيزخان وهولاكو ولكن بملابس عصرية : نفس الرغبة في القتل والتدمير والإبادة .. نفس الشهية – التي لا ترتوي – للدم البشري .. نفس التجاوز للعهود والمواثيق .. ونفس الرؤية العرقية العدوانية التي لا تأبه ، وهي تسعى لإلغاء " الآخر " لأية قيمة خلقية أو دينية أو إنسانية.

والأمة الإسلامية حكاماً ومحكومين ، إذا استثنينا بطبيعة الحال ، الشرائح المجاهدة بالنفس، أو المال ، أو الكلمة ، تعاني من العجز ، والشلل ، والرعب ، والإخلاد إلى الأرض .. وربما " اللا اكتراث " الذي يجعل منها ، كما حدث زمن الغزو المغولي ، مشروعاً للابتزاز ، وقصعة يولم عليها المولمون.

فلنرجع إلى الوراء للتأشير فحسب ، ودون الدخول في التفاصيل التي لا يتسع لها المجال ، على ملامح الحالة التي مرّت بها الأمة زمن الغزو المغولي ، من أجل أن يتبين للقارئ ، أن التاريخ – بالفعل – قد يعيد نفسه ولكن بصيغ أخرى ، وأن العبرة – في الوقت ذاته – بالنتائج وليس بالحدث الذي لم يصل غايته بعد ..

لقد بدا الغزو المغولي لعالم الإسلام كارثة دموية رهيبة ، واكتساحاً مترعاً بالقسوة والضراوة، وضربة همجية لا تضبطها أية قيمة إنسانية أو دينية أو خلقية على الإطلاق.

ويكفي أن نقرأ في " التاريخ الكامل " لابن الأثير بعض عباراته لكي نعرف من نبرتها التي لم نعتدها في مؤلفه المذكور ، هول المأساة ، رغم أنها كانت – يومذاك – في بدايتها الأولى زمن جنكيزخان. إنه يقول : " لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها ، كارهاً لذكرها ، فأنا أقدّم إليه رجلاً وأؤخر أخرى ، فمن الذي يسهل عليه نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فيا ليت أمي لم تلدني ، ويا ليتني متّ قبل حدوثها وكنت نسياً منسياً. إلاّ أنني حضتني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً. فنقول : هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها ، فعمت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قال قائل : إن العالم مذ خلق الله آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً ، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ، ولعلّ الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا (!!) .. إنهم لم يبقوا

على أحد ، بل قتلوا الرجال والنساء والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة ، فإنا لله وانا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ".

ولقد اهتزّت ثقة المسلمين في كل مكان بقدرتهم على الردّ ، وسيطر عليهم إحساس مدمّر بالهزيمة ، يعبّر ابن الأثير عن بعض صوره بقوله : " لقد حكي لي عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذي ألقى الله (سبحانه وتعالى) في قلوب الناس منهم. حتى قيل إن الرجل الواحد من المغول كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس ، فلا يزال يقتلهم واحداً واحداً ولا يتجاسر أحد ان يمدّ يده إلى ذلك الفارس. ولقد بلغني أن إنساناً منهم أخذ رجلاً ولم يكن مع التتري ما يقتله به ، فقال له : ضع رأسك على الأرض ولا تبرح ، فوضع رأسه على الأرض ومضى التتري وأحضر سيفاً وقتله به ! وحكي لي رجل قال : كنت أنا ومعي سبعة عشر رجلاً في طريق فجاء فارس من التتر وقال لنا : ليكتف بعضكم بعضا ، فشرع أصحابي يفعلون ما أمرهم ، فقلت لهم : هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب ؟ فقالوا : نخاف. فقلت : هذا يريد قتلكم الساعة فنحن نقتله فلعل الله يخلصنا ، فو الله ما جسر أحد على أن يفعل. فأخذت سكيناً وقتلته ، وهربنا فنجونا "!

ومع ذلك كلّه ، فإن الهجوم المغولي الشرس كان بشكل من الأشكال ، بمثابة التحّدي الذي استجاش قدرات الأمة ، ووحد طاقاتها المبعثرة لمجابهة المصير ، وكانت معركة " عين جالوت " في فلسطين عام (٦٥٨هـ) هي ساحة الاختبار التي مكنت المسلمين من حماية وجودهم ، فضلاً عن استئناف مقاومتهم لبقايا الصليبيين في فلسطين والشام ، وتحرير الأرض من قبضتهم بشكل نهائي.

خطوات من أجل الالتحام بالقضية

يتساءل المرء وهو يرى الشعب الفلسطيني يجابه لوحده قوى التدمير والإفناء الصهيوني ، ويتصدّى وحده لواحدة من أبشع الحلقات الإرهابية في التاريخ وأشدّها ضراوة ودموية.

وهو يرى الشعب الأعزل يقاوم بالحجارة والسكاكين طائرات إسرائيل وصواريخها ومدفعيتها وقذائفها ودبّاباتها.

وهو يرى هذا الشعب يطوف في شوارع المدن الفلسطينية يحمل شهداءه على أكتافه ويصرخ في مواجهة الطاغوت اليهودي المترع بالحقد والكراهية وشهوة الدم والتخريب.

وهو يرى الأمة العربية والإسلامية حكاماً وشعوباً لا تكاد تحرّك يداً أو تفعل شيئاً إزاء هذا الذي يجري في الساحة الفلسطينية صباح مساء حيث يغيب التكافؤ حتى في حدوده الدنيا ، وحيث يجد الفلسطينيون أنفسهم في معادلة لا تنطوي على أي قدر من التوازن على الإطلاق.

يتساءل المرء : ألم يحن الوقت لتجاوز حالة العزلة والموات هذه ، فيما لم يشهد التاريخ له مثيلاً ؟ ألم يحن الوقت لكسر حاجز الصمت والسلبية واللا أبالية التي تخيّم بظلّها الثقيل الكئيب على الوجدان العربي من المحيط إلى الخليج ؟

وهل يكون الإنسان مبالغاً أو مثالياً أو غير واقعي ، إن دعا إلى اتخاذ خطوات أوّلية فحسب ؛ للاقتراب أكثر من القضية .. للتفاعل معها .. ليس بالكلمات والخطب والندوات والمحاضرات والفضائيات .. ولكن بتنفيذ شيء ما على أرض الواقع ، فيما يمنح الفلسطينيين دعماً حقيقياً ، ويعطي الانتفاضة الكبيرة قدرات أكثر على الفعل والاستمرار ؟

هل يكون المرء خيالياً إن دعا بني قومه إلى تذكر أن الفلسطينيين هم عرب ومسلمون .. وأن تركهم لمصيرهم من قبل إخوانهم في ديار العروبة والإسلام ، هو عمل غير أخلاقي ، فضلاً عن كونه مناقضاً لطبائع الأشياء وبداهات السلوك في تواريخ الأمم والشعوب ؟؟

هل يكون المرء غير واقعي إن حاول تذكير المليار وربع المليار من المنتمين للإسلام ، بأن دينهم يأمرهم بأن يكونوا مع إخوانهم في الساحة ، ليس بالضرورة وفق صيغ مباشرة ، ولكن وفق ألف أسلوب وأسلوب ، ينفذّون من خلاله المعطيات المؤكدة لدينهم بخصوص المسؤولية المشتركة للأمة التي يفترسها الكفرة الفجرة من المغضوب عليهم .. الأمة التي يكاد مركبها يغرق لأنها لم تضرب ، أو تمنع ، اليد التي أحدثت فيه ثقباً كبيراً ؟

وبدلاً من أن نضيّع وقتنا في التباكي على ما يجري هناك في الساحة الفلسطينية .. بدلاً من عقد الندوات والمؤتمرات وإلقاء المحاضرات ، والحوار في الفضائيات عن القضية .. يمكن أن نتعلم من بني إسرائيل أن الفعل هو السلاح الأكثر قدرة على تحقيق الأهداف ، بغض النظر

– حتى – عن مشروعيتها .. فكيف إن كان الفعل ينطوي بكل حيثياته على كل قيم الحق والعدل ؟!

وإذا كان الفلسطينيون أنفسهم قد نفذّوا شعار " عصا غليظة وكلام قليل " ، أفلا يتحتّم على الأمة أن تتعلّم منهم .. هم أيضاً .. كيف تتحرك بأسلوب " عملي " لتحقيق التحام أكبر بالقضية، قبل أن تتلقى سخريات التاريخ ولعناته ..